منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (2514) السنة التاسعة - الاربعاء (20) حزيران 2012

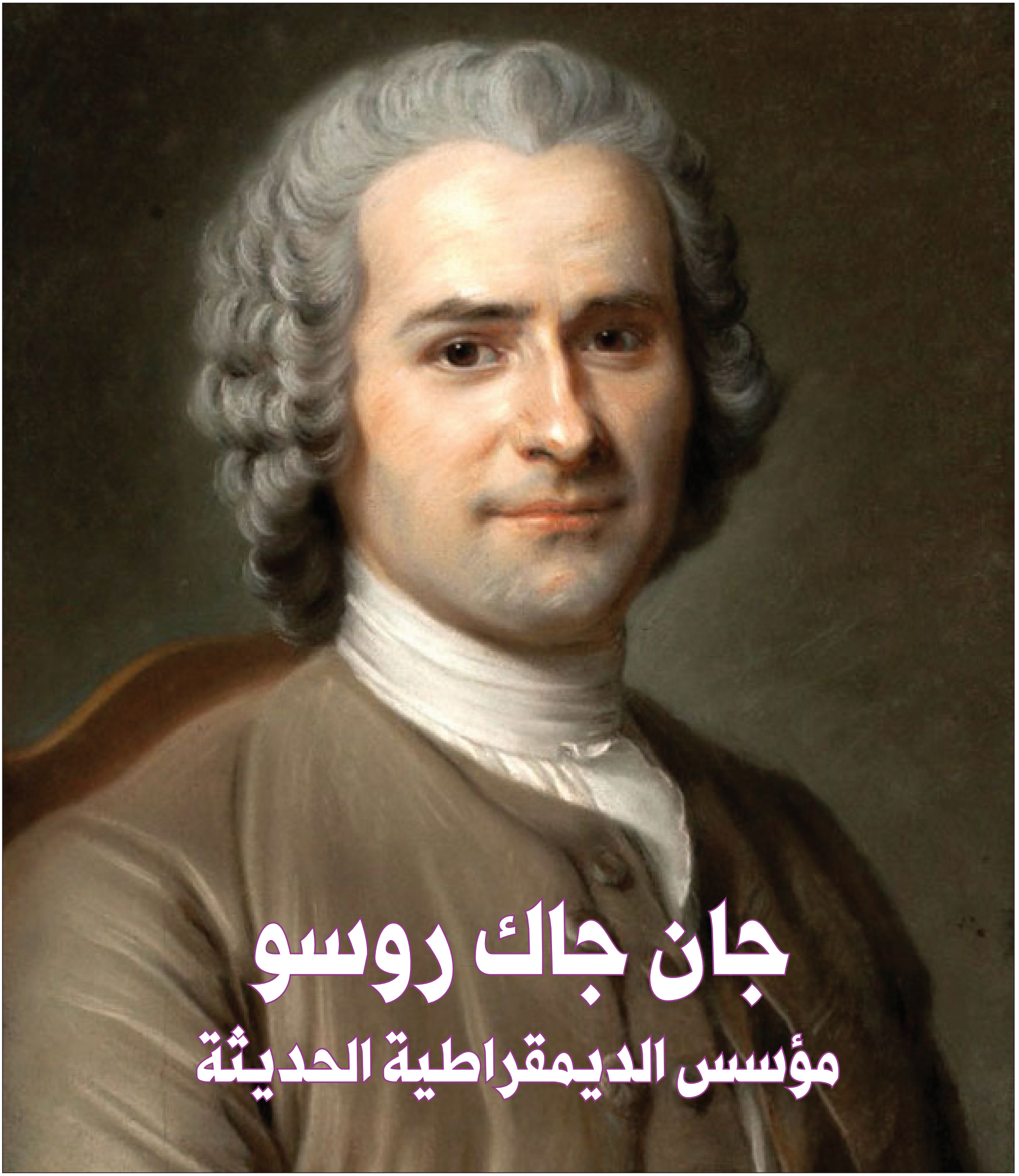

جان جاك روسو
مؤسس الديمقراطية الحديثة

جان جاك روسو.. كتاب من التجربة الانسانية

اعداد/ منارات

جان جاك روسو (١٧١٢ / ١٧٧٨) فيلسوفٌ سويسريٌّ، ساهم بفلسفته في تشكيل الأحداث السياسيّة، التي أدّت إلى قيام الثورة الفرنسيّة، حيث أثّرت أعماله في التّعليم والأدب والسياسة.

حياته المبكرة

وُلد روسو في مدينة "جنيف" بسويسرا. وكانت أسرته من أصل بروتستانتيٍّ فرنسيّ. وقد عاش في جنيف لمدّة سبعين عاماً تقريباً. توفّيت أمّه عقب ولادته مباشرةً، تاركةً الطفل لينشأ في كنف والده، الذي عُرف بميله إلى الخصام والمشاجرة. ونتيجةً لإحدى المشاجرات عام ١٧٢٢، اضطر والد روسو إلى الفرار من جنيف، فتولّى عمّ الصّبيّ مسؤوليّة تربيته.

وفي العام ١٧٢٨، هرب روسو من جنيف، وبدأ حياةً من الضياع، ومن التّجربة والفشل في أعمالٍ كثيرة. كانت الموسيقى تستهويه دوماً، وظلّ لسنوات متردّداً بين احتراف الكتابة أو الموسيقى.

وبعد وقت قصير من رحيله عن جنيف، وهو في الخامسة عشرة من عمره، التقى روسو بالسيدة "لويز دي وارنز"، وكانت أرملةً موسرةً. وتحت تأثيرها، انضمّ روسو إلى الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة. ومع أنّ روسو كان أصغر من السيّدة "دي وارنز" باثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً، إلا أنّه استقرّ معها، بالقرب من مدينة "شامبيري"، في دوقية "سافوي". وقد وصف سعادته بعلاقتهما في سيرته الذاتية الشهيرة "اعترافات"، التي كتبت في عام ١٧٦٥ أو ١٧٦٦ - ١٧٧٠، ونُشرت عامي ١٧٨٢ و ١٧٨٨، ولكن العلاقة لم تدم، فقد هجرها روسو أخيراً عام ١٧٤٠م.

وفي عام ١٧٤١م أو ١٧٤٢، كان روسو في باريس يجري وراء الشّهرة والثروة، وقد سعى إلى احتراف الموسيقى. وكان أمله يكمن في وضع نظام جديد للعلامات والرموز الموسيقيّة قد كان ابتكره. وقدّم المشروع إلى أكاديميّة العلوم، ولكنّه أثار قدراً ضئيلاً من الاهتمام.

في باريس، اتّصل روسو بالفلاسفة، وهي جماعةٌ من مشاهير كتّاب وفلاسفة العصر. وحصل على التّشجيع الماديّ من مشاهير الرأسماليين. ومن خلال رعايتهم، خدم روسو أميناً للسفير الفرنسيّ في البندقية، خلال عامي ١٧٤٣، ١٧٤٤.

علامة في تاريخ حياة روسو

كانت نقطة التحوّل في حياة روسو عام ١٧٤٩، حين قرأ عن مسابقة، تكفّلت برعايتها أكاديميّة "ديجون"، التي عرضت جائزةً ماليّةً لأحسن مقال عن موضوع "هلْ إحياء النّشاط في العلوم والفنون سيؤدّي إلى الإسهام في تطهير السلوكِ الأخلاقيّ؟". وما أن قرأ روسو عن المسابقة حتّى أدرك المجرى الذي ستتّجه إليه حياته، وهو معارضة النظام الاجتماعيّ القائم الذي كان يشعر بالاستياء منه كثيراً، ما بين طبقة غنيّة تهتمّ بالبذخ والمظاهر والتّفاخر، وطبقة كبيرة من الفقراء المُعدمين. وقرّر أن يمضي فيما بقيَ من حياته في بيان الاتّجاهات الجديدة للتنمية الاجتماعية. وقدّم روسو مقاله إلى الأكاديميّة تحت عنوان: بحث علمي في العلوم والفنون عام ١٧٥٠/١٧٥١، حمل فيه على العلوم والفنون لإفسادها الإنسانيّة. ففاز بالجائزة، كما نال الشّهرة، التي ظل ينشُدها منذ أمد بعيد، ولكنّه كان يُفضّل الانعزال والتفكير.

في العام ١٧٥٥، نشر روسو في إطار مسابقة أخرى، تحت رعاية نفس الأكاديميّة، مقالته المعروفة بالخطاب الثاني، تحت عنوان "خطابٌ حول مصدر وأسس اللاعدالة بين النّاس"، والذي أتمّ به شهرته، وأحدث على غرار الخطاب الأوّل جدلاً واسعاً، وانصبّ عليه عداء الحاكم وطبقة الأثرياء.

بدعوة من السيّدة "لويز دي إبيني"، فرّ "روسو" من باريس، واستقرّ بـ"مونمورانسي"، من سنة ١٧٥٦م إلى سنة ١٧٦٢م.

أعمالـــــه

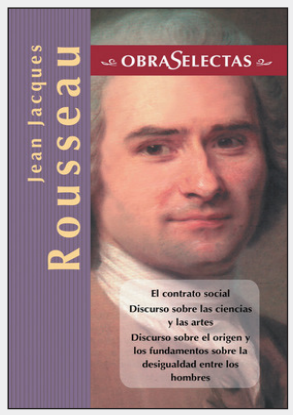

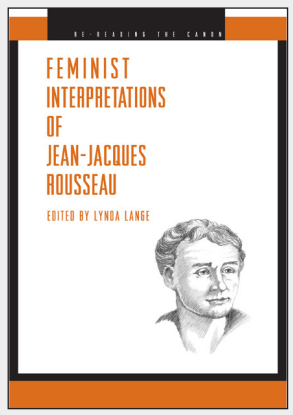

تتّسم آخر أعمال روسو بالإحساس بالذنب وبلغة العواطف. وهي تعكس محاولته للتّغلب على إحساس عميق بالنّقص، ولاكتشاف هويّته في عالم كانَ يبدو رافضاً له. حاول روسو في ثلاث محاورات صدرت أيضاً، تحت عنوان قاضي جان جاك روسو"، كُتبت في المدّة ما بين عامي ١٧٧٢ – ١٧٧٦، ونُشرت عام ١٧٨٢، حاول الرّد على اتّهامات نقّاده، ومن يعتقد أنّهم كانوا يضطهدونه. أمّا عمله الأخير، الذي اتّسم بالجمال والهدوء، فكان بعنوان أحلام اليقظة للمتجوّل الوحيد (كُتبت بين عامي ١٧٧٦ و١٧٧٨، ونُشرت عام ١٧٨٢). كذلك، كتب روسو شعراً ومسرحيّات نظماً ونثراً. كما أنّ له أعمالاً موسيقيّة، من بينها مقالاتٌ كثيرةٌ في الموسيقى والمسرحيّة الغنائيّة (أوبرا)، ذات شأن، تُسمّى "عرّاف القرية"، و"معجم المُوسيقى" (١٧٦٧)، ومجموعةٌ من الأغنيات الشعبيّة، بعنوان "العزاء لتعاسات حياتي" (١٧٨١). وفضلاً عن ذلك، كتب روسو في علم النبات، وهو علمٌ ظلّ لسنوات كثيرة تتوق نفسه إليه.

في التربيةً

كتب روسو كتاباً رئيسيّاً في التربية، اسمه "إميل"، على هيئة قصّة طفل. وتبدأ القصّة بنشأة الطفل إميل، وتنتهي بزواجه، وهو في سنّ ٢٥. يُربّى النشء على طبيعته بدون إجباره على حفظ العلوم والثقافات، بذلك يتعلّم النشء من طبيعة ميوله وبالتّجربة الشخصيّة.

وأهمّ ما يصبو إليه روسو أن ينشأ في الطفل الشّعور الاجتماعيّ. وكما يؤكّد "روسو" على استقلاليّة النّشء، فيجب أن يكون هذا مقترناً بتوجيه خفيٍّ، بحيث تتفق ميول النشء مع ما يُريده المعلم. ففي كتاب "إميل أو عن التربية" يقول روسو: "اتبعوا مع النشء الطريقة العكسيّة، وهي أن يشعر النشأ بأنه هو صاحب الاختيار. فلا توجد استجابة وتكريس إلا بالشّعور بأنّ المرء حرٌّ في ما يتعلّمه. هذا هو التكريس الحقيقيّ". ويرى روسو أنّ النّشء الذي ينشأ على تلك الطريقة الحرّة هو الأصلح لمجتمعه.

أفـــكـــار روســـو

قام روسو بانتقاد المجتمع في رسائل عديدة. ففي رسالته تحت عنوان: "بحث في منشأ وأسس عدم المساواة" (١٧٥٥)، هاجم المجتمع والملكيّة الخاصّة، باعتبارهما من أسباب الظلم وعدم المساواة. وكتابه "هلويز الجديد" (١٧٦١) مزيجٌ من الرواية الرومانسيّة والعمل، الذي ينتقد بشدّة زيف المبادئ الأخلاقيّة، التي رآها روسو في مجتمعه. وفي كتابه "العقد الاجتماعي" (١٧٦٢)، وهو علامة بارزةٌ في تاريخ العلوم السياسيّة، قام روسو بطرح آرائه في ما يتعلّق بالحكم وحقوق المواطنين. وفي روايته الطويلة "إميل" (١٧٦٢) أعلن روسو أنّ الأطفال، ينبغي تعليمهم بأناة وتفاهم. وأوصى روسو بأن يتجاوب المُعلم مع اهتمامات الطفل. وحذّر من العقاب الصّارم، ومن الدروس المُملّة، على أنّه أحسّ أيضاً بوجوب الإمساك بزمام الأمور لأفكار وسلوك الأطفال.

كان روسو يعتقد أنّ النّاس ليسوا مخلوقات اجتماعيّة بطبيعتهم، معلناً أنّ من يعيشون منهم على الفطرة معزولين عن المجتمع، يكونون رقيقي القلب، خالين من أية بواعث أو قوى تدفعهم إلى إيذاء بعضهم بعضاً. ولكنّهم ما إنْ يعيشوا معاً في مجتمع واحد حتّى يصيروا أشراراً. فالمجتمع يُفسد الأفراد من خلال إبراز ما لديهم من ميلٍ إلى العدوان والأنانيّة.

لم يكن روسو ينصح النّاس بالعودة إلى حالة من الفطرة. بل كان يعتقد أنّ الناس بوسعهم أنْ يكونوا أقرب ما يكونون إلى مزايا هذه الحالة، إذا عاشوا في مجتمع زراعيٍّ بسيط، حيث يُمكن أن تكون الرّغبات مُحدودة، والدوافع الجنسيّة والأنانيّة محكومة، والطاقات كلّها موجّهة نحو الانهماك في الحياة الجماعيّة. وفي كتاباته السياسيّة، رسم روسو الخطوط العريضة للنّظم التي كان يعتقد، أنّها لازمةٌ لإقامة ديمقراطيّة يُشارك فيها كافّة المواطنين.

يعتقد روسو أنّ القوانين يتعيّن عليها أن تعبّر عن الإرادة العامّة للشعب. وأيّ نوع من الحكم يُمكن أن يكتسب الصّفة الشرعية مادام النّظام الاجتماعيّ القائم إجماعيّا. واستناداً إلى ما يراه روسو، فإنّ أشكال كافة الحكم تتّجه في آخر الأمر إلى الضّعف والذبول. ولا يُمكن كبح التدهور إلّا من خلال الإمساك بزمام المعايير الأخلاقيّة، ومن خلال إسقاط جماعات المصالح الخاصّة. وقد تأثر روبسْبيير وغيره من زعماء الثورة الفرنسية بأفكار روسو بشأن الدولة، كما أنّ هذه الأفكار كانت مبعث إلهام لكثيرٍ من الاشتراكيين وبعض الشيوعيين.

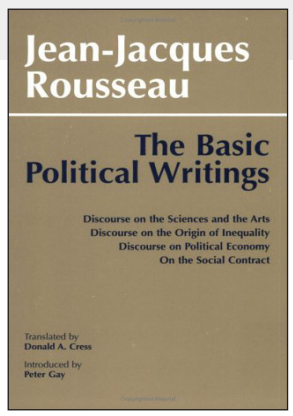

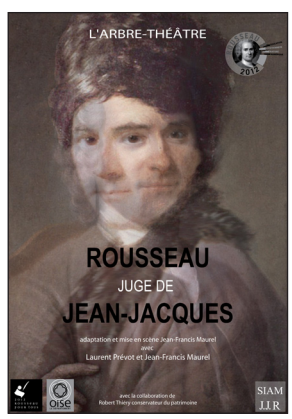

نفـــوذه الأدبـــي

مهد روسو لقيام الرومانسيّة، وهي حركةٌ سيطرت على الفنون، في الفترة من أواخر القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلاديين؛ فلقد ضرب روسو، سواء في كتاباته أو في حياته الشخصيّة، المثل على روح الرومانسيّة، من خلال تغليبه المشاعر والعواطف على العقل والتفكير، والنزوة والعفوية على الانضباط الذاتيّ. وأدخل روسو في الرواية الفرنسيّة الحبّ الحقيقيّ المضطرم بالوجدان، كما سعى إلى استخدام الصور الوصفيّة للطبيعة على نطاق واسع، وابتكر أسلوباً نثريّاً غنائيّاً بليغاً. وكان من شأن اعترافاته أنْ قدّمت نمطاً من السير الذاتيّة التي تحوي أسراراً شخصيّةً.

حياتـه المتـأخـرة

عندما تحوّل روسو إلى المذهب الكاثوليكيّ، خسر حقوق المواطنة في جنيف. ولكي يستعيد هذه الحقوق تحوّل مرّةً أخرى عام ١٧٥٤ إلى المذهب البروتستانتيّ. وفي عام ١٧٥٧ اختلف مع الفلاسفة؛ لأنّه استشعر منهم الاضطهاد. عام ١٧٥٧ زار المغرب كمساعد لسفير البندقية، وأبدى إعجابه به، وتغنّى بجمال فتاةٍ مغربيّةٍ أغرم بها، كان اسمها حميدة.

جـان جـاك روسـو.. مفكـر فـي زمـن الملاحقات

هاشم صالح

في اعترافاته كتب عن أمه بصيغة شبه أسطورية.. ولكن كانت له أم اخرى في الواقع لأن الأولى لم يتح له التعرف عليها..

يمكن القول بان المفكر البلجيكي ريمون تروسون كرس حياته العلمية كلها لدراسة اعمال جان جاك روسو والتأثير الضخم الذي مارسه على الأجيال اللاحقة ليس فقط في فرنسا او سويسرا وانما في كل انحاء أوروبا. فماذا عن هذه السيرة التي يقدمها استاذ جامعة بروكسيل عن روسو والتي تتجاوز التسعمائة صفحة من القطع الكبير؟ وهل يمكن تلخيصها او ايفاؤها حقها في مقالة واحدة! بالطبع لا. وانا شخصيا كنت احلم، ولا ازال، بتأليف كتاب كامل عن جان جاك روسو، كنت اود لو اترك كل شيء واتفرغ له. فهناك اسباب عديدة تدفعني الى ذلك، اسباب لا استطيع الخوض فيها كلها هنا.

الجـزء الاول مـن الكتـاب يحمـل العنوان التـالي: المسـار الصاعد نحو المجـد. وفيه يـروي المؤلـف قصـة السنـوات الاولى لروسـو بـدءا من ولادتـه في مدينة جنيف وانتهـاء بنشـره لنصوصـه الاولى التـي عرفت الناس به مـرورا بهربه وهو صغير مـن جنيف في احـدى الامسيـات وهيمانه علـى وجهه في احضان الـبراري غير مبال بالمخاطر.

واما الجـزء الثـاني مـن الكتـاب فمكرس للنصـف التالي مـن حياة روسـو، اي بعد ان اصبح شهيرا جـدا وملاحقا جدا ايضا. ولذلـك فهـو يتخـذ العنـوان التناقضـي التـالي: الحداد الساطع للسعادة. صحيح انهـا سعـادة ان تصـل الى المجـد بعـد ان كنـت مغمـورا او في الحضيـض. ولكـن ثمـن هـذا المجـد كان غاليا، بـل واغلى مما كان يتصوره روسو. مـن هنا كلمة الحداد المربوطـة بالسعـادة. ليعـذرني القارئ اذا كنـت سـوف اتوقـف فقـط عنـد السنوات الاخـيرة مـن حياة جـان جاك روسـو بعد ان انهكتـه الملاحقـات الشرسـة لعدة قوى تريـد تحطيمـه بـأي شـكل. فالواقـع ان عظمـة روسو تكمن هنا، فقد ظل صامدا او ثابتـا على حقيقته حتـى آخر لحظة قبل ان يسقـط صريعـا ويرتاح. من هنـا جاذبيته التـي ادهشت جميـع الكتـاب اللاحقين من غوتـه الى تولستـوي الى دستويفسكي الى هولدرلـين.. فقـد دفـع ثمـن كل حـرف كتبـه. الفصول الاخيرة مـن الكتاب تحمل العناويـن التالية: روسـو يدخل في متاهة لا اول لهـا ولا آخـر، روسـو مشـردا تائها مـن مـكان الى مـكان، النضـالات الاخيرة او الصراعات الاخـيرة لجان جاك روسو، روسـو يستسلـم للمقاديـر ويقـول: لتكن مشيئتـك يـا رب! مـوت جان جـاك روسو، انـدلاع الثـورة الفرنسيـة التـي رفعـت كتـاب العقـد الاجتماعـي الى اعلـى مرتبة فأصبـح انجيـل الثـورة، انتشـار صـوره في كل شـوارع باريـس على ايـدي الثوار والطبقـات الشعبية بعد ان كان ممنوعا في حياته ان يقيم في العاصمة الفرنسية او ان يظهر بشكل علني امام الناس، نقل جثمانه الى مقـبرة العظمـاء (البانتيـون) حيث لا يـزال يرقـد حتى هـذه اللحظـة الى جانب غريمه اللدود: فولتـير... كل هذه الفصول والفقرات تتوالى وراء بعضها البعض على هيئـة رواية شبه بوليسيـة شديدة الاثارة والامتاع.

سـوف اتوقـف قليلا عنـد صفحـة واحدة يتحـدث فيها ريمـون تروسون عـن عودة روسـو الى ذلـك البيـت القديم الـذي شهد لحظـات السعـادة الوحيـدة في حياته بعد ان هـرب مـن جنيـف، وهـو في السادسـة عشرة من عمـره. من المعلوم انه كان يلعب خـارج المدينـة هـو وبعـض رفاقـه او ابن خالـه بالاحرى. وعندما تأخـرا في العودة كانـت المدينة قد اغلقت ابوابها فقرر الهرب هائمـا على وجهه وعدم العـودة اليها ابدا. والواقع انه لم يكن ينتظره احد على عكس ابـن خالـه: فأمه كانت قـد ماتـت منذ زمن طويل، بـل واثناء ولادتـه، وابوه تزوج.. وبالتـالي فلماذا يعـود؟ والى ايـن؟ لماذا لا يركـض في البراري المحيطـة بجنيف مثلا بحثا عن بيت آخر، عـن دفء آخر محتمل. وهذا مـا كان، فقد شاءت الصدفة ان تقوده قدماه الى بيت تلك المرأة التي ستصبح أمه بالفعـل: اي مدام دو فارنس. فقد استقبلته بعد تردد في البداية، وآوته.

المهـم انـه في بيـت هـذه المـرأة التـي خلّد ذكراهـا في الاعترافـات بصفحـات يبلـى الزمـن ولا تبلـى وجـد روسـو لاول مـرة معنى الحنان المنزلي والحب. وعاش اياما سطعت شمسها طويلا قبل ان تغرب. وهذه المرأة التي لم تكن تقربه بأي شكل هي التي يدعوها في الاعترافات بكلمة: ماما.

فأمـه الحقيقيـة لم يتح لـه ان يتعرف عليها الا مـن خلال الذكريات التي حكوها له عنها والتـي ذكرها في بدايـة الاعترافات بشكل مؤثـر وشبه اسطـوري. وبالتـالي فعندما يذكـر كلمة ماما في كتبه فإنـه لا يقصد أمه الحقيقيـة وانمـا هـذه المـرأة التـي تعرف

عليها وهو في السادسة عشرة من عمره والتي تدعى مدام دوفارنس. ومعلوم ان آخر نص كتبه ولم يكمله (لأنه مات بشكل مفاجئ) كان مكرسا لها، مهدى لذكراها..

ولكن ظروف الحياة اضطرته الى تركها بعد عيشة بضع سنوات لكي يذهب الى العاصمة ويجرب حظه في باريس: مدينة الوصول والشهرة. ثم كان ما كان وانقطعت الاخبار وماتت مدام دوفارنس دون ان يراها. او قل انه راهامرة واحدة قبل موتها بسنوات طويلة وكان قد اشتهر واصبح رجلا اخر. وها هو الآن يعود الى البيت الذي احتضنه وانقذه من هلاك محقق. ها هو الآن يعود على خطاه، الى البيت القديم، واذا بالذكريات تنفجر في وجهه دفعة واحدة. اذا بها تنثال وراء بعضها البعض كفلم سينمائي.

ها هو يعود الى البيت الذي شهد ملاعب صباه وسنوات الفتوة الاولى، البيت الذي كان عامرا بحضور تلك المرأة المشرقة كالشمس. ها هو يعود وقد شاخ واصبح مريضا، مظلما، منهكا من كثرة المناورات والمؤامرات التي تحاك حوله. ها هو يعود وقد اثقلته الهموم وضاقت في وجهه الارض. ولكن بعد خمس وعشرين سنة يكفيه ان يغمض عينيه ولو قليلا لكي يرى) ماما(وهي تركض وراءه في البراري لكي تقبله.

يكفيه ان يغمض عينيه لكي يرى كل الحياة السابقة تنفجر حية كما كانت. ولكن ينبغي عليه أولا ان يذهب الى المقبرة لكي يزورها لكأن صوتا داخليا يناديه: بالله عليك اذا مررت بتلك النواحي القصية، ورأيت ذلك القبر المهجور الذي امّحت آثاره او كادت ونبتت فوقه الاعشاب البرية حتى غطته، بالله عليك عرج عليه قليلا، انحني فوقه، وقبل عني التراب! وهكذا كان، فبعد ان زار البيت القديم وطاف حوله عدة مرات، بعد ان القى نظرة على البراري المحيطة وهي فاتنة الجمال بين فرنسا وسويسرا، صعد فورا الى مقبرة الفقراء حيث دفنوها على عجل. وهناك انبطح على القبر وراح يقبله ويمرغ وجهه فيه ويبكي حتى ليكاد يسمع نشيجه عن بعد.. هناك انحنى على القبر لكي يحتضنه بكلتا يديه.

راح يكفر عن ذنوبه لأنه لم يستطع ان يشهد موتها ولم يساعدها في اواخر حياتها قبل ان تموت.. وراح يتذكر: آخر مرة رآها كانت قبل بضع سنوات من موتها، وكان عائدا من باريس بعد فراق طويل وبعد ان اصبح مشهورا، ولم يكد يتعرف عليها في البداية من كثرة ما تغيرت وتدهورت.. واحس بالرعب وهو يسلّم عليها. واحست هي بالفرح ولم تكد تصدق عينيها. لم تكد تصدق ان هذا الطفل المجهول الذي تعرف كل نقاط ضعفه واحدة واحدة والذي جاءها يوما ما مشردا تائها قد اصبح جان جاك روسو! كانت فخورة به ومذهولة في ذات الوقت. وكان هو ينحني عليها، يقبل يديها..

هذه العودة على الماضي كانت ناعمة، يقول ريمون تروسون، ولكنها سحقت قلبه سحقا. فالماضي لن يعود. وتلك المرأة الشقراء الجميلة التي استقبلته يوما ما من عام (١٧٢٨) وفتحت له بيتها لم تعد هنا لكي تملأ الدنيا بحضورها. وفي قبرها لم يدفن جسدها الغالي فقط، وانما اجمل سنوات شبابه.

ثم راح يسأل الجيران عنها وعن اخبارها.. وعرف بأنها افتقرت جدا في اواخر حياتها بعد ان كانت عزيزة، بل ومضيافة تفتح بيتها للقريب والبعيد. وادرك عندئذ ان اعداءه ضربوا هنا ايضا... لقد ارادوا ان يذلوه باذلالها. وقد نجحوا. ألم يقسم الوزير شوازيل يمينا بالله بانه سيركعه، او سيقصم ظهره اذا لم يركع؟ ومن يستطيع ان يتحدى ارادة الوزير القوي للويس الخامس عشر؟الم يوصلوه في اواخر حياته الى حافة الهذيان والجنون؟ لقد اصبح يخشى ان يشوهوا كتبه بعد موته او يزوروها ويحرفوها فراح يبحث عن اصدقاء خلص لكي يضعها وديعة بين ايديهم، لكي تنشر كما هي بعد موته. ينبغي العلم بأن الاعترافات، و الحوارات، و احلام المتنزه المتوحد، لم تنشر في حياته لأنه كان ممنوعا عليه النشر بعد ان صدر في حقه حكم بالسجن المؤبد والاعتقال.

وقد وصل به الأمر في احدى المرات الى حد التفكير بايداع مخطوطته في كنيسة نوتردام الواقعة في منطقة الحي اللاتيني وسط العاصمة الفرنسية. وقد كتب عليها الكلمات التالية: يا إله الحق والعدل، تقبل هذه الوديعة من شخص غريب عاثر الحظ، شخص وحيد على وجه الارض بلا دعامة ولا صديق. شخص أهين واحتقر من قبل جيل بأسره. شخص تهكموا به وأذلوه وخانوه... أنتظر بكل ثقة رحمتك، وأتوكل على عدالتك، وأستسلم لمشيئتك.

لحسن الحظ فإن الكنيسة كانت مغلقة في اليوم الذي ذهب فيه اليها لايداع المخطوطة. وذلك لأنه لو اودعها هناك ووقعت في يد كاهن كاثوليكي متعصب ضد البروتستانتيين لضاعت حتما او لمزقت. يضاف الى ذلك انهم ما كانوا يعتبرونه فقط زنديقا لانه ينتمي الى مذهب الاقلية البروتستانتية وانما كان كافرا ايضا لأن تفسيره للدين المسيحي يتناقض كليا مع تفسيرهم. وبالتالي فهو مدان في جميع الاحوال. والانكى من ذلك هو ان طائفته ايضا كانت تدينه بسبب افكاره الجريئة اكثر من اللزوم عن الدين.. وهي الافكار التي سوف تنتصر بعد عشر سنوات فقط على موته. بل وسوف تشكل زبدة الاعلان الشهير لحقوق الانسان والمواطن بعد ان دشنت عصر الحداثة الروحية والفكرية.

فجان جاك روسو استطاع ان ينقذ الجوهر الروحاني والاخلاقي للدين المسيحي بعد ان قدم عنه صورة عقلانية مقنعة، ولكن سابقة لاوانها. ولهذا السبب فلن يرى الضوء في حياته، لن يرى نهاية النفق. وقد وصل به الامر في لحظة يأس عارم الى حد النزول الى شوارع باريس لتوزيع المنشور التالي على المارة:

الى كل فرنسي لا يزال يحب العدالة والحقيقة. ايها الفرنسيون! اني اتوجه اليكم مباشرة. يا أيتها الامة التي كانت سابقا طيبة واخلاقية، ما الذي اصابكم؟ لماذا تغيرتم؟ ولماذا تضطهدون هذا الاجنبي الفقير الذي يعيش في حماكم؟ لماذا كل هذه المقالب، والمؤامرات، والاكاذيب والاشاعات التي تحاك ضدي؟ ولكن المارة لم ينتبهوا اليه وهو يمد يده اليهم كالشحاذ لكي يعطيهم ورقة المنشور. واذا ما انتبهوا واخذوه منه فسرعان ما كانوا يعيدونه اليه بعد قراءته او يرمونه في الأرض بعد ان يشكوا في قواه العقلية.. وهكذا لم يجد شخصا واحدا يتفهمه، واحس وكأن الارض تميد من تحته. احس وكأنه في صحراء من البشر. لم يكن يعرف ان يومه لم يجئ بعد. وانه لن يجيء الا بعد موته حيث ترفع باريس كلها صوره على رؤوس الاشهاد. اما الآن فلا وقت له. وسوف يذوق طعم الذل والاضطهاد حتى الثمالة. ذلك انه لا نبي في قومه. في الواقع انه كان يعرف ان لحظته ستجيء والدليل على ذلك انه كتب الكلمات التالية: مهما فعل البشر ضدي، فإن السماء سوف تفعل فعلها يوما ما. لا اعرف متى ولا كيف ولا اين. ولكنها سوف تنتقم لي، سوف تنصفني. كل ما اعرفه هو ان الحكم الاعلى جبار وعادل، وان روحي بريئة ولم استحق كل هذا المصير.

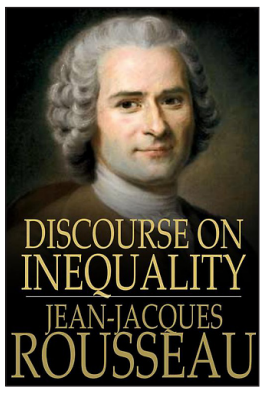

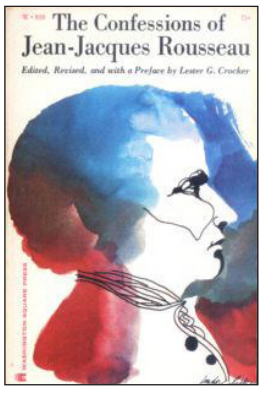

الشيء العجيب في روسو، وهنا تكمن عظمته ايضا، هو انه لم ييأس من رحمة الله على الرغم من كل ما فعلوه به طيلة العشرين سنة الاخيرة من حياته. لم يسقط في مهاوي العدمية كما حصل لبعض المفكرين الآخرين. ولم يكفر بمفهوم الحق والعدل حتى بعد ان مرغوه بالوحل وشوهوا سمعته عن طريق الاشاعات في شتى انحاء اوروبا. لقد ظل واثقا من ان الحقيقة سوف تظهر يوما ما، وان قوى الظلام والدسيسة والاجرام حبلها قصير. واعتقد ان هذا اكبر درس قدمه لنا. وهو درس ينبغي ان نحفظه جيدا لأنه صالح لكل المجتمعات والعصور

عن جريدة الشرق الاوسط/ تموز/ ٢٠١٠

جان جاك روسو هو اديب وفيلسوف ومفكر سياسي فرنسي كان لافكاره اثر كبيره في عصره ولاسيما في عملية التمهيد للثورة الفرنسية الكبرى (١٧٨٩) التي غيرت وجه اوربا والعالم. ولد روسو في عام ١٧١٢ في جنيف/ سويسرا لعائلة فرنسية فقيرة. وقد واجه منذ طفولته قسوة الحياة وظلم المجتمع لذلك فقد نشأ ثائرا ضد النظام الاجتماعي وضد الحضارة الجديدة وضد عدم المساواة التي تميز بين الناس وفقا لمختلف الاسس والاسباب سواء الاسس السياسية او الاسس الاقتصادية او القومية..الخ.

د.عبد الجبار منديل

فيلسوف عصر التنوير في اوربا...

عاش روسو طفولة بائسة فقد توفيت والدته بعد مولده مباشرة وتكفل ابوه بتعليمه القراءة والكتابة وكان منذ الطفولة يعوده على قراءة الادب والفلسفة والتاريخ الامر الذي ساهم في ثقافته المبكرة. وعلى الرغم من انه التحق بالعمل في كثير من الحرف اليدوية البسيطة الا انه كان مولعا بالمطالعة وقراءة كتب كبار الكتاب والمؤلفين.

وترك جنيف وترك معها البروتستانية مذهب ابائه واجداده وراح سائحا ومتشردا في كل انحاء اوربا وكان يقطع اغلب المسافات ماشيا على قدميه مثل قدماء فلاسفة الاغريق الذين كانوا يدعون بالمشائين. فقد مشى من جنيف متجولا في سافوي عبر جبال الالب الى تورين ومن تورين الى فرنسا. وقد كان يعشق الطبيعة ويشعر بنشوة صوفية وهو في احضانها لذلك فقد كانت مناظر الجبال والغابات والبحيرات الجميلة في تلك الاماكن تصقل افكاره وتجلوها وتتوافق مع طبعه الرومانسي الذي كان يميل الى الاستغراق في الاحلام واطلاق العنان لخياله وافكاره وقد ظهر كل ذلك في اعماله الفلسفية او الروائية.

تتسم مؤلفات روسو بالصفاء والنقاء والصوفية فهو يدعو الى تنوير متوازن يراعي الجسد والروح ويراعي العاطفة والعقل وهدفه النهائي هو الاخاء و والمساواة بين البشر.

في عام ١٧٢٨ وكان عمره آنذاك ستة عشر عاما كان يهيم على وجهه في الحقول بغير مأوى ولكن بتوصية من الاب (يونيفير) قامت السيدة المحسنة مدام دي وارانس بأيوائه والاحسان اليه وكانت هذه السيدة كاثوليكية تحولت الى المذهب البروتستاني تحت تأثير الحملة التي يقودها ملك سردينيا بدفع الرواتب نظير تحويل الناس من الكاثوليكية الى البروتستانية. التحق روسو بأحدى المدارس الاكليركية ولكن ذلك لم يدم طويلا فقد عاود حياة التجوال والتشرد ومارس مختلف الاعمال والوظائف مثل العمل بفرقة موسيقية ونسخ القطع الموسيقية والعمل كموظف في دائرة للمساحة والعمل كمعلم خصوصي في مدينة ليون والعمل بوظيفة سكرتير لدى سفير فرنسا في البندقية...الخ وكان من خلال عمله في كل تلك المهن لا ينقطع عن القراءة والمتابعة والتحصيل العلمي بكل قوة واندفاع.

انتقل روسو الى باريس في عام ١٧٤١ وبدأ الاتصال بالاوساط الادبية والفكرية حيث اخذ يشارك في الفعاليات والندوات والتجمعات السياسية والفلسفية.

كانت نقطة التحول في حياة روسو عندما اعلنت اكاديمية ديجون الفرنسية عن مسابقة تمنح من خلالها جائزة لافضل مقال عن تنمية النشاط في العلوم والفنون ودور هذه التنمية في تقويم السلوك الاخلاقي وقد ساهم روسو في هذه المسابقة بمقال تحت عنوان بحث علمي في العلوم والفنون في عام ١٧٥٠. وقد كان الفوز الذي حصل عليه المقال في المسابقة هو البداية الحقيقة للمجد الادبي والعلمي الذي تكللت به اعمال روسو اللاحقة حيث فتح امامه باب الشهرة العريضة.

لقد كانت هذه المقالة بمثابة البداية لمشروع روسو التربوي. فالغاية من تربية المواطن عند روسو هي الحصول على الحرية والفضيلة معا ومن اجل الحصول على هاتين الثمرتين لابد من البدء ومنذ الطفولة ومتابعة التربية حتى يصبح الطفل رجلا والرجل هو الانسان والمواطن معا والتربية تصنع السياسة والمواطنين لان كل مواطن هو سياسي. ولا يمكن ان تكون هناك وطنية بلا حرية ولا حرية بلا فضيلة.

كان روسو يبدو للاخرين وكانه شخص غريب الاطوار وخارج عن الاطر والتقاليد الاجتماعية لذلك فقد اختلف مع الجميع بمن فيهم الفلاسفة. اما بالنسبة للاصوليين المسيحيين فقد شنوا عليه حملة شعواء وكفروه وادانوا افكاره واعتبروها خطرا كبيرا على الشباب وخروجا على العرف السائد لذلك فأن روسو الذي احدث القطيعة مع الافكار الشائعة في عصره دفع الثمن غاليا بان حاربه المحافظون وعزلوه وحاصروه. ولكن كل ذلك لم يمنعه من ان يصبح ضمير عصره ومنارته الفكرية.

عندما كان روسو يسير في شوارع باريس كان الشارع يحتشد بالفضوليين الذين يرغبون برؤية الرجل الذي شغل الناس والذي كان يمثل ظاهرة غير مسبوقة انبثقت لاول مرة في القرن الثامن عشر بداية عصر التنوير حيث حل المثقف العلماني محل المثقف التقليدي ورجل الكنيسة واصبح بمثابة القائد الجديد لعقول الناس وضمائرهم.

كتب روسو الكثير من الكتب في الادب والفلسفة والفكر السياسي ولكن اهم هذه الكتب هي:

١. عدم المساواة بين الناس ١٧٥٥ م
٢. هيلويز الجديد ١٧٦١ م
٣. العقد الاجتماعي ١٧٦٢ م
٤. اميل ١٧٦٢م
٥. الاعترافات ١٧٧٢ م

لم يفكر روسو اطلاقا في اقامة مجتمع قائم على المساواة المطلقة ولكنه اراد ازالة الجو وتخفيف حدة التناقض بين البشر فهو يسعى الى تقليص الفجوة بين الناس الاكثر فقرا والاكثر غنى لان ذلك سوف يزيد من تماسك الشعب وبالتالي من تماسك الدولة حيث لا يجب ان يكون هناك ثراء فاحش ولا فقر مدقع ويجب ارساء كل ذلك على قوة التشريع.

في كتابه (هيلويز الجديد) والذي هو مزيج من الرواية الرومانسية والفلسفة التربوية يوجه روسو سهام النقد الى المباديء الاخلاقية الزائفة والتي كانت سائدة في المجتمع حيث يصور العلاقات الانسانية بشفافية وشاعرية ويهاجم قسوة المجتمع وقسوة التقاليد الجامدة التي تقتل المشاعر وتشجع الزيف والمراءاة.

في روايته الطويلة (أميل) وهي رواية في التربية وعلم النفس حيث يقول فيها روسو ان الاطفال ينبغي تعليمهم بأناة وتفاهم ويجب على المعلم ان يتجاوب مع رغبات الطفل واهتماماته ولا يجب باي حال اخضاع الطفل للعقاب الصارم كما يجب عدم اجباره على الدروس المملة. ويعتقد روسو ان الناس ليسوا مخلوقات اجتماعية بطبيعتهم بل ان من يعيشون منهم على الفطرة يكونون رقيقي القلب وليست لديهم اي بواعث او قوى داخلية تدفعهم الى ايذاء الاخرين ذلك ان المجتمع هو الذي يفسد الافراد من خلال ابراز ما لديهم من ميل الى العدوانية والانانية.

اما كتاب (الاعترافات) فقد كان فتحا جديدا في ادب السيرة الذاتية. فلاول مرة منذ عهد القديس اوغسطين يتحدث كاتب عن نفسه بمثل هذه الجرأة والصراحة ويكشف خفايا نفسه ويتحدث عن مشاعره الداخلية بكل شفافية ويضرب للاخرين مثلا في النزاهة والصدق مع النفس ومع الاخرين من دون اي بهرج زائف او اقنعة.

تحدث روسو في كتاب الاعترافات عن حياته الشخصية وعن ماضيه وعن معارفه بضمير مفتوح وكأنه يضرب المثل للاخرين في الشجاعة والاستقامة. وهو يقول في بداية الاعترافات انه يقوم بعمل لم يقم به احد من قبل ولن يقدر على فعله احد فيما بعد (انني ارغب برسم صورتي بكل صدق فأنا فقط اعرف مشاعري واسرار قلبي وانا لم انسى الصالح من افعالي ولم اضف من الخير مالم يكن موجودا بالفعل)

اما كتاب (العقد الاجتماعي)الذي يعد علامة بارزة في تاريخ العلوم السياسية فقد طرح روسو فيه افكاره فيما يتعلق بالحكم وحقوق المواطنين. فالعقد الاجتماعي هو الرغبة في وحدة الجسم الاجتماعي وتبعية المصالح الخاصة للارادة العامة. فالعقد الاجتماعي هو ليس عقدا بين افراد ولا عقدا بين الافراد والسلطة بل ان كل واحد يتحد مع الكل. فالعقد معقود مع المجموعة. وكل واحد يضع شخصه وكل قدراته تحت سلطة الارادة العامة. وسيادة الشعب هي خير ضمان للحقوق الفردية. والانسان يمتلك حريته بطاعته للقوانين. والشعب الحر يطيع ولكنه لا يطيع البشر بل يطيع القوانين. فالشعب الحر ليس له اسياد.

في العقد الاجتماعي يقترح روسو الدين المدني الذي يقول انه الوسيلة الفعالة في تحقيق الوحدة الاجتماعية. في عام ١٧٧٨ ساءت حالة روسو الصحية وداهمته الوفاة بسبب مضاعفات مرض التهاب المرارة الذي كان يلازمه طوال حياته.

بعد الثورة الفرنسية قررت حكومة الثورة في عام ١٧٩٤ نقل رفات روسو الى مقبرة العظماء في البانتيون حيث تم دفنها في احتفال مهيب.

الرصافي وروسو في حياتهما الخاصة والعامة

ليس اشق علي من ان اختار جانبا من الجوانب المتعددة التي تتألف منها حياة الشاعر المناضل الخالد الرصافي لاتبسط في الحديث عنه بمناسبة الذكرى السنوية الثانية التي مرت على مبارحته هذا العالم الصاخب. للتناقض في كل ناحية من نواحيه الى العالم الاخر حيث يجد الراحة من اللغوب الذي عاناه، ويلتمس السلوى عن الاضطهاد الذي كابده.

عبد القادر البراك
صحفي عراقي رائد

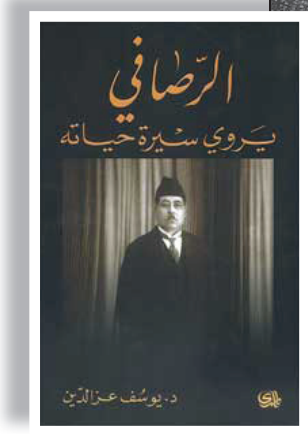

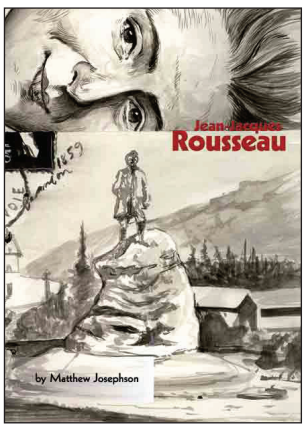

وليس رد هذه المشقة الى ان المصادر التي تيسر لي الحديث عن الرصافي قليلة، ولا لاني من المسلمين بان التعويل على دراسة اثار الرصافي في الكتابة عنه ليس بذي جدوى، بل ان كثرة المصادر التي بين يدي نفسه، ووقوفي على كثير من حوادث الرصافي التي لم يكتب لها ان تدون واعجابي للتنامي به والذي زاد من شدته معرفتي الشخصية له. وملازمتي الطويلة لمجالسه، هي التي تذر فكري مرتبكا وتترك بياني الضئيل عاجزا عن ذلك لان الرصافي بالنسبة الى "كالغزالي" بالنسبة الى ذلك المستشرق الذي استقصى جميع آثار حجة الاسلام وجميع حوادثه، وتعرف على مختلف الاراء فيه واخرج كتابا مفصلا عنه استهله بكلمة قال فيها (الغزالي رجل لا ينتهي الحديث عنه)!!

اجل اني لاجد نفسي بمكان هذا المستشرق حين اهم بالتحدث عن الرصافي ولكن ذلك لن يصدني عن ان اكتب فيه بمناسبة ذكراه الغالية بعض الكلمات، لانه ليس مما يجعل ان تمر ذكرى هذا الشاعر المناضل – الذي افنى عمره واوقف جهوده التي كابد من جرائها شتى الوان الاضطهاد في سبيل خدمة امته – دون الوقوف منها موقف الاجلال والاكبار والاشادة والتبجيل.

وقد يبدو غريبا للقراء ان تكون ثمة صلة بين الفكر الفيلسوف (جان جاك روسو) والرصافي سيما وان الفرق بعيد بينهما من ناحية التفكير الذي كان يملأ رأس كل منهما، الا ان استغرابهم هذا سيزول اذا اكدت لهم ان حياة الرصافي في اكثر حوادثها قريبة الشبه من كثير من الحوادث التي تؤلف حياة كثير من عظماء الفكر والادب في التاريخ البعيد. وان اراءه وافكاره تتفق مع اراء كثير من ذوي الرأي والفكر ليس في بواعثها فحسب وانما في تشابهها، وان من اليسير على من لا يعرف اي جوانب الرصافي حرية بالدرس وقيمته بالتناول ان يرجع الى طريقة المقارنة والمشابهة بينه وبين انداده في العبقرية والنبوغ ليخرج من ذلك بحكم عليه يمين مكانه بين الرجال الذين قورن بهم. ليرى ان حياة كل من روسو والرصافي الخاصة قريبة من بعضها في اكثر من مجال واحد فكلاهما نشأ يتيما، وكلاهما لم يستقر في بلد من البلاد، وانما انفقا عمريهما مشردين تطاردهم السلطات ويتهددهم العيش بضروراته وتكاليفه، فقد عاش روسو متنقلا بين سويسرا وانكلترا وفرنسا وسواها من بلاد اوروبا لا يكاد يجد في احد منها العيش الهاديء الذي يمكنه من مواصلة نتاجه الفكري، وتنقل الرصافي مشردا فمن العراق الى فلسطين، الى لبنان فسائر الاقطار الشرقية، فلقي مثل ما لقاه زميله.

وبمقدار ما قاسى روسو من تشنيع خصومه بما يكتنف حياته الخاصة من مفاسد، كابد الرصافي من هذا التشنيع الذي لم ينغص عليه حياته فقط، وانما استمر حتى بعد ان حسم الموت بينه وبين الحياة الفانية التي عاشها وعلى يد من يتوخى منهم الناس الانصاف (كالشبيبي) و(الزيات) ولم تكن هذه المفاسد العزوة الى كل منهما الا نتيجة لصراحتهما المتناهية في التحدث عن كافة الامور العامة منها والخاصة، تلك الصراحة التي لا ترضى من اعتادوا العيش في الظلام ومن دأبوا على الافساد من طريق تشويه سمعة كل مناضل يسعى لرفاه الشعب ويهدف لاقرار السيادة الوطنية.

وكما اخذ الكثيرون على الرصافي عيشه على حساب اصدقائه الكبيرين لادبه وشخصه اخذوا على روسو ايضا فقد عاش روسو على حساب امثال هؤلاء الاصدقاء النبلاء، فاذا قام (السعدون) باعانة الرصافي فقد قام (الركيز جيراندان) باعاشة روسو صاحب (العقد الاجتماعي) حتى اخترمه الموت.

وهذه الاوجه القليلة من التشابه بين حياة هذين النابغين ما كان لي ان اتناولها لولا انها شكلت بعض المؤاخذات التي كان وما يزال خصوم الرصافي يشنعون بها في كل مجال يتسع لهم.

اما الحياة العامة فقد كان التشابه بينهما كبيرا فيها.

فقد كان روسو من دعاة الديمقراطية الثائرين ولكنه لايمرز صرخاته بالتوجيه العلمي الذي يعين الواجبات ويرسم الخطوات ويعين النتائج، وانه قد غذى الثورة الفرنسية التي غيرت الكثير من مفاهيم الحياة واعتبرت اكبر نصر للقوى الشعبية في تاريخ النضال الانساني المستمر، وكذلك كان الرصافي "قصائد" في شجب طغيان الدولة العثمانية واعوانها، واناشيد ثائرة في مقاومة الاستعمار وماجوريه قد زادت من الشعور الوطني في نفوس العرب عامة والعراقيين خاصة.

والباعث على ايمانهما المسبق بالشعب والدعوة الى الثورة في سبيل الشعب واقرار حقه هو ايمانهما – على ما يقول روسو – بان "الشعب منبع الفضائل ولا احسب القراء بحاجة الى التدليل على ذلك وحوادث الرصافي ملء الاسماع والافئدة واذا كان (روسو) قد اولى مباحث التربية جهودا مشكورة فان تقارير الرصافي التي نظمها يوم كان مفتشا في وزارة المعارف العراقية قريبة منها لان كلا منهما كان ينزع في التربية الى التوفيق بين المقتضيات الواقعية وبين العلم.

وليست دعوة الرصافي في الرجوع الى الطبيعة الا صدى لنداء كان يردده روسو، والدافع على دعوتهما متقارب بالنسبة الى الظروف المتشابهة التي مرت ببلديهما في العصرين الذين عاشا فيهما.

هذه لمحات مختصرة عن التقارب بين روسو والرصافي في بعض خطوط حياتهما العامة والخاصة. لابد ان نختمها – على سبيل المقارنة – بالتساؤل هل كوفئ الرصافي بمثل ما كوفئ به سلفه؟ وهل جوزي على جهاده بشيء يدل على الرغبة في انصافه؟ ذلك ما نترك الاجابة عليه للاجيال القادمة.

"كتبت للعدد الخاص الذي اصدرته مجلة الشعلة في ١٨ آذار ١٩٤٧".
عن كتاب (اعلام من الشرق)

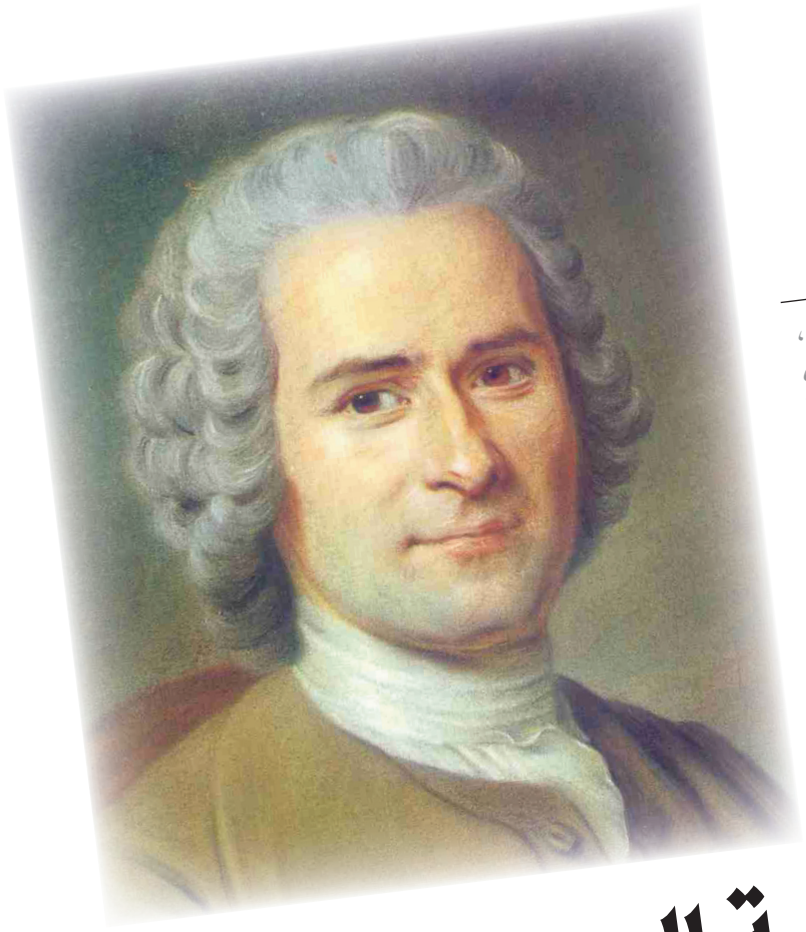

مثلما شغلت الحرية اذهان المفكرين الاسلاميين، فانها شغلت اذهان المفكرين في الجانب الشمالي من الكرة الارضية، وهذه مسألة جد طبيعية نظرا لملازمة الحرية للانسان منذ آدم (ع)، واعتداء قابيل على حرية أخيه هابيل في الحياة والتمتع بما وهبه الله له، ومنذ ذلك التاريخ والانسان يبحث في مفهوم الحرية وحدودها وتطبيقاتها ومصاديقها الموضوعية.

مفهوم الحرية من الفلسفة اليونانية الى جان جاك روسو

نصير الخزرجي

الحرية عند فلاسفة اليونان

وذهب على مذبح الحرية الكثير من الانبياء والعظماء والمفكرين، وفضّل البعض ان يهب حياته ويزهقها على يد اعدائه لئلا يتنازل عن حريته وبما يؤمن، وبما يعتقد بانه حقه في القول والفعل بما يراه حقا، اذ: "ليس هناك شيء اهم من حرية الارادة"(١)، مثلا فضّل سقراط (Socrates)(٤٦٩-٣٩٩ ق م) واضع باب التعريف في المنطق القديم، والذي اعطى للناس الثقة بوجدانهم عن فوضى السياسة وتشكيك الجدل(٢)، فضل هذا الفيلسوف في بلد رفع اول ما رفع لواء "الديمقراطية المباشرة" الموت على التنازل عن افكاره وحريته، كانت افكاره وايمانه بحرية التعبير هي السبب وراء محاكمته المشهورة "ففي سن السبعين قدم سقراط لمحكمة اثينا بتهمة عقوق مبادئ اله اثينا وافساد عقول الشباب من خلال تساؤلاته المستمرة"(٣)، كان يدرك خطورة الموقف وقد: "رأى سقراط انه لن يعامل بتسامح، وحضه اصدقاؤه على الفرار من اثينا فرفض، ولم تكن الا ايام حتى عقد له مجلس مؤلف من ٥٠٠ قاض لمحاكمته.. قال سقراط: ليس على الارض انسان له الحق في ان يملي على الاخر ما يجب ان يؤمن به أو يحرمه من حق التفكير كما يهوى.. مادام الانسان على وفاق مع ضميره فانه يستطيع ان يستغني عن رضا اصدقائه وان يستغني عن المال وعن العائلة وعن البيت، ولكن بما انه لا يمكن ان يصل الى نتائج صحيحة بدون ان يفحص المسائل، مالها وما عليها، فحصا تاما فانه يجب ان يترك الناس احرارا، لهم الحرية التامة في مناقشة جميع المسائل بدون ان تتدخل الحكومة في مناقشتهم.

ويضيف الكاتب المصري سلامة موسى (١٨٨٧-١٩٥٧م) أن حجج سقراط في دفاعه عن نفسه ورد تهمة الكفر التي اتهم بها كانت قوية الى حد ان خاطبه المجلس في الكف عن تعليم تلاميذه بحيث اذا وعد وعدا صادقا بذلك فان المجلس يعفو عنه، فكان جواب سقراط على هذه التسوية: كلا، مادام ضميري، هذا الصوت الهادئ الصغير في قلبي، يأمرني بان اسير واعلم الناس طريق العقل الصحيح فاني سأوالي تعليم الناس اصرح لهم بما في عقلي بدون اعتبار النتائج"(٤).

واذا كان سقراط قد وصف الحرية بانها حرية الناس في مناقشة جميع المسائل دون رقابة سلطوية فانّ تلميذه افلاطون (Plato٤٢٧-٣٤٧ق م) اعتبر الحرية مفصلا هاما في حياة الناس: "وان النفس، بحكمة العلم، أي النظر والتأمل في الحقائق الأبدية، تستطيع ان تنفصل عن الجسم، (وتنحدر) منه، فالنفس تصل الى حريتها عن طريق النظر، والتأمل، والحرية هي الارتقاء بواسطة الجدل العقلي نحو الوجود المطلق".(٥) وافلاطون هنا يعول كثيرا على الحرية، لانه زعم ان الانسان عاش بروحه المثالية قبل ان يعيش ببدنه، في عالم اسماه (عالم المثل): "وهناك عرفت روح الانسان روح الحقائق"(٦)، فهو يرى ان الحرية ضرورية لان يصل الانسان الى ذلك العالم،عالم المثل، فالحرية عنده هي انطلاقة الانسان نحو كماله من دون عوائق او حواجز مرتبطة بشوائب الارض والجسد، ليس هذا على الارض فحسب، فهو يعتقد: "ان نفوس الفلاسفة الذين يناضلون في حياتهم من اجل ملاحقة الحكمة والسعي وراء نيلها ستتحرر بعد الموت من كل قيود الجسد ولوثاته".(٧) وهذه اشارة واضحة من افلاطون الى ان الانسان سيعود كما جاء الى عالم المثل، ولكن شريطة ان يكون حرا في متابعة الحكمة وان لا يقيد نفسه باواصر الارض والجسد، وبالطبع فان هذه مرحلة متطورة في سلوك الانسان قليل من يرتقي اليها، وعند حديثه عن المدينة الفاضلة التي ينشدها او مدينة الحرية والديمقراطية فانه يشير الى حرية: "كل انسان في ان يرتب وينظم حياته بالصورة التي تناسبه تحت قانون ينطبق على الجميع"(٨)، ففي المدينة الفاضلة يرى افلاطون: "ان الحرية هي افضل واكمل ما يملكه الناس، ولذلك فهناك مدينة واحدة فقط هي عندما يملك المرء الحرية الطبيعية للعيش بسلام".(٩)

ان التأكيد على تجرد الروح في حياة الانسان وحريته نجدها في فلسفة خريج الاكاديمية الافلاطونية في اثينا، الفيلسوف ارسطو (Aristotle) (٣٨٤-٣٢٢ق م)، فهو قد وجد ان النفس هي مدار حياة الانسان ونشدانه للحرية والعيش بسلام وطمأنينة.(١٠)

الحرية المشروطة:

وكما صعب على المفكرين المسلمين، ان يهتدوا الى تعريف جامع مانع لها، كذلك لم يهتد اليه المفكرون الغربيون، يقول الباحث العراقي الشيخ آل نجف: "واذا ما طالعنا التراث الغربي في تعريف الحرية وتحديد معناها ومفهومها رأينا فيه تأكيدا متواصلا على وجود تعاريف ومعان مختلفة كثيرة للحرية حتى قال مونتسكيو انه: ليست هناك كلمة اعطيت معاني مختلفة كالحرية، ثم عرفها بقوله: ان يقدر المرء على ان يعمل ما ينبغي عليه ان يريد، وألاّ يُكره على عمل ما لا ينبغي ان يريد، هي الحق في ان يعمل المرء ما تجيزه القوانين العادلة، واذا كان المواطن ان يعمل ما ينهى عنه كان لغيره نفس هذا الحق فتلاشت الحرية".(١١)

ونلاحظ في هذا التعريف انسجاما في رؤية القانوني الفرنسي مونتسكيو (Montesquieu Charles Louis De) (١٦٨٩-١٧٥٥م) للحرية وتأطيرها بالقانون، وهو انسجام نابع من خلفيته القانونية وهو مؤلف كتاب (روح الشرائع) الذي كان له تأثير غير قليل في تطور دستور فرنسا في عهد الثورة التي اندلعت بعد ٣٤ سنة من وفاته، وقد اشتهر عنه قوله ان المملكة التي توجدها الحرب تحتاج الى حرب لتحافظ على كيانها(×) ويقدم "كتاب روح الشرائع الى جانب كتابين اخرين دروسا حول الطغيان والحرية"(١٢) لكننا نجد الفيلسوف توماس هوبز (Thomas Hobbes)(١٥٨٨-١٦٧٩م) البريطاني الذي يعد أحد أضلاع المثلث الفكري السياسي الى جانب ميكافيللي وسبينوزا، الذين ساهموا في وضع النظريات السياسية للدولة الحديثة في بريطانيا وفي اوروبا، لا يعول كثيرا على القانون، فهو يعتقد ان كينونة الحرية في الانسان دافع اساسي لإعمال حريته وليس القانون، يقول البروفيسور ريتشارد توك(Richard Tuck)استاذ القانون الدولي في جامعة هارفارد الاميركية: "لقد اخذ هوبز في عمله السياسي عهدا، بانه اذا لم يكن الانسان حرا بحق وحقيقة، فليس هناك موضع للادعاء بان هذا الانسان يكون متمتعا بالحرية فقط عندما يكون تحت نظام قانوني معين.. اذ تبقى الحرية عند هوبز نصا يمتلك معنى واسعاً، ولكنه مشروط بعدم وجود موانع لاحراز ما يرغب فيه الانسان، فالارادة او الرغبة لوحدها لا تكفي لاطلاق معنى الحرية"(١٣)، يفهم من كلام هوبز ان الحرية ينبغي ان تكون جزءاً من الانسان لا ان تقوده القوانين اليها، على ان تكون هذه الحرية حقيقية لا وضعية، وهوبز صريح في مدعاه، فامتلاك الارادة والرغبة لا يعنيان الحرية بعينها مادامت هناك موانع تحجز الانسان عن تحقيق رغبته وتمرير ارادته، وهوبز كغيره من رواد الفكر السياسي الغربي، يؤمن ان حرية الانسان تنتهي عند حرية الاخرين، على انه ذهب في تنظيره السياسي كالفيلسوف الايطالي ميكافيللي (Niccolo Machiavelli) (١٤٦٩-١٥٢٧م)، الى دعم سلطة الملك وتنازل الناس عن بعض الحقوق الشخصية لصالح سلطة الملك.(١٤) لكن هوبز رفض وهو يتحدث عن اهمية الحرية وقد وصفها بانها "انعدام المعارضة"(١٥)، رفض الحرية الزائدة غير المقيدة اذ: "أكد بان هذه الحرية ليست الحرية الحقيقية لانها خارجة عن السيطرة، بالاحرى سيكون الانسان مستعبدا من خلال سيادة حالة من الخوف المطرد المستمر.

ان المصالح الشخصية الخاصة وحتى الحياة نفسها ستكون عرضة للرعب والذعر من قبل إعمال الاخرين لحرياتهم. ان الحرية المطلقة تقود الى فقدان مطلق للحرية الحقيقية".(١٦)

وكما ان الحرية لدى هوبز مشروطة بعدم

الاعتداء على حرية الاخرين فانها مشروطة ايضا بعدم ايذاء النفس، يقول ريتشارد توك: "اعتقد ان السيد هوبز لا يقول بان الحق الطبيعي للانسان في الحرية تسمح له بان يدمر حياته الشخصية"(١٧)، فنحن هنا امام بعد اخلاقي على علاقة بالحرية، فالانتحار من الحرية الذاتية لكنه ايذاء للنفس وازهاق لها، وقطع عضو من اعضاء الجسد حرية ذاتية، ولكن العملية ألحقت الأذى بحياة الانسان نفسه، نعم يصبح قطع العضو في ظروف اخرى عملية انسانية مطلوبة ومن الحريات المحمودة المباحة، مثل ان يتبرع الانسان بإحدى كليته لانسان اخر محتاج لها، او ان يتبرع باعضاء جسده ككقطع غيار بعد مماته.(١٨)

وعدم الاضرار بالنفس هو رأي ذهب اليه الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (Jacques Rousseau) (١٧١٢-١٧٧٨م)(×) يقول روسو: "لا تعتمد الحرية على ان يفعل الفرد ما يريد بارادته الخاصة، بقدر ما تعتمد على الا يخضع لارادة شخص اخر، وهي تعتمد اكثر على عدم خضوع الاخرين لارادتي الخاصة، ففي الحرية العامة

ليس لاحد الحق في ان يفعل ما تحرمه عليه حرية الاخرين، ان الحرية الحقة لا تدمر نفسها قط"(١٩)، ويجادل روسو الفلاسفة الاخرين مؤكدا: "ان الناس بطبيعتهم يكرهون أن يكونوا مقيدين بالقوانين، ولكنهم يجدون انفسهم في مأزق بدون قوانين، فالناس لا يكونون جيدين وصالحين في حالة الفوضى، فهم سيقتنعون بان غياب القوانين يخلق قيودا اكثر من وجود القوانين نفسها".(٢٠)

لاشك ان جان جاك روسو لا يقصد بالاكراه، الجانب المظلم والسلبي منه لان هذا خلاف الحرية وخلاف رسالة الانبياء والمفكرين والفلاسفة لتحرير الانسان من رق الحياة وسلبياتها، فالانسان تتنازعه نفسه الامارة بالسوء لانه متكون داخليا من خير وشر، فهو قد يقدم على مزاحمة حرية الاخرين، ولكنه اذا وجد ان القانون يمنعه من ذلك فانه سيخضع للقانون وهو مكره، فالاكراه هنا فيه جوانب قانونية وحقوقية ينبغي للانسان ان يسلّم بها، والا تدهورت الحياة المدنية بأهلها.

يعلق الاكاديمي المصري استاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة الدكتور إمام، على كلام جان جاك روسو معرجا على تعريف (هيجل وكانت) للحرية، بقوله: "نحن هنا نلمح بواكير فكرة هيجل الشهيرة في تعريف الحرية بانها (التحديد الذاتي) (Self Determination) وهي الفكرة التي اعتمدت هي نفسها على فكرة كانط في استقلال الارادة (Autonomy) التي تشرّع لنفسها قانونا لتسير عليه، فكأن الحرية هي أن يطيع الانسان نفسه او ارادته الكلية، فهو عندما يطيع القانون الذي اشترك بطريقة مباشرة او غير مباشرة في سنّه فانه في الواقع يطيع نفسه، وعندما يعصي هذا القانون ربما يترتب على هذا العصيان من عقاب، فانه يطلب العقاب لنفسه، وهكذا يصبح سلوك الفرد وحريته صورة مصغرة للديمقراطية، وهي ان يحكم المرء نفسه بنفسه! وتكون الديمقراطية السياسية أن يحكم الشعب نفسه بنفسه، وعندئذ فقط يكون حرا".(٢١) وكان عمانوئيل كانت حريصا اشد الحرص على الحرية الذاتية للانسان واستقلاله ولذلك فهو يوصف بانه "فيلسوف استقلال ارادة الذات الانسانية".(٢٢)

الحرية وحقائق الاشياء:

في الواقع ان احد استدلالات المفكرين الاسلاميين على نقص القوانين الوضعية، وقصورها على الإلمام بكل احتياجات الانسان، منها حرية الانسان، هو قولهم ان هذه القوانين انما هي من بناة عقل الانسان، ولما كان الانسان تتنازعه رغائب كثيرة وتتنازعه نفسه، وهناك صراع دائم بين العقل والنفس والعواطف، فان عقله مهما تعاظم، ومهما اجتمعت العقول القانونية الفطنة، فانها غير قادرة على الإلمام بكل احتياجات الانسان في مجال التشريع القانوني، ومن هنا فان التشريع ينبغي ان يكون خاضعا لجهة لا تتنازعها مثل هذه الرغائب، بل جهة مبلغ غايتها سعادة الانسان تفيض عليه بالخيرات، وليست هناك جهة في الكون تحمل مثل هذه المواصفات سوى خالق الكون، وهو الله الغني عن خلقه، على ان للفقهاء حرية الحركة التشريعية او التأطيرية ضمن دائرة الفراغ، اذ ان من مهماتهم: "ملء منطقة الفراغ بتشريع قوانين مناسبة"(٢٣) كما يعبر عن ذلك المفكر العراقي الراحل الفقيه السيد محمد باقر الصدر (١٩٣٥-١٩٨٠).

اننا نجد فيما ذكره الدكتور إمام توافقا وانسجاما بين الفيلسوف الالماني جيورج هيجل (Wilhelm Friedrich Hegel George) (١٧٧٠-١٨٣١م) صاحب الديالكتيكية الجدلية، والقائل بالمثالية المطلقة، ونظيره الفيلسوف الالماني عمانوئيل كانت أو كانط (Immanuel Kant) (١٧٢٤-١٨٠٤) القائل بان العقل البشري عاجز عن ادراك حقائق الاشياء بذاتها، يساوق هذا التوافق تساوقا في مجال آخر، يقول الدكتور شدود عميد المعهد العالي للعلوم السياسية في سوريا: "لقد انتقلت فكرة نهاية التاريخ الى الفيلسوف (هيغل) واتفق (هيغل) مع (كانط) ان هناك نقطة نهاية لمسار التاريخ، وهي تحقيق الحرية على الارض، وكما قال: (ان تاريخ العالم يتحقق من خلال الوعي بالحرية)، وتتجسد الحرية عند (هيغل) في قيام الدولة الدستورية، او اما اطلق عليها (فوكوياما صاحب كتاب نهاية التاريخ والرجل الأخير، المنشور في اميركا العام ١٩٩٢) ايضا الديمقراطية الليبرالية، ورأى (هيغل) ان قمة المسار التاريخي كله هي تحقيق التاريخ البشري مؤسسات سياسية اجتماعية ملموسة"(٢٤)، ان الحرية الشخصية بنظر هيجل تعني: "متابعة مصالحنا الخاصة وهي في الواقع تستعبدنا.

نحن في الواقع لسنا احرارا حقا تحت أي ظرف بسبب اننا نُجبر لنقاتل ضد العالم الذي نراه منفصلا عنا، بكلمة اخرى نحن نُنفر من اجل راحة العالم والمجتمع، حتى ولو ان ذلك المجتمع وضع قليلا من القيود على أفعالنا. الحرية الحقيقية تزدهر فقط اذا كان كل واحد يمارس حريته الشخصية جنبا الى جنب مع راحة وسلامة المجتمع، وهذا يعني فيما يعني ان كل فرد يفقد خصوصيته في ذلك المجتمع ككل. وفي هذا الطريق ليس هناك من تناقض بين اهداف المجتمع واهداف كل فرد، فكل واحد فرد، الان هو حر ذلك لانه ليس من تناقض البتة بين الافعال الشخصية وافعال الكل".(٢٥)

ان هيجل بما جاء به انما يدعو الى ذوبان حرية الفرد في حرية الاخرين، أي نوع من أنواع الدعوة الى تذويب الملكيات الخاصة لكل انسان، وهي نظرية عمل الفكر الماركسي على تأكيدها والتبشير بها.

أما ما ذهب اليه هوبز حول الارادة وفاعليتها نجد قريبا من تلك الافكار لدى الفيلسوف والرياضي الفرنسي رينه ديكارت (Rene Descartes)(١٥٩٦-١٦٥٠) صاحب القول المشهور "انا افكر اذا انا موجود"(٢٦)، فهو يرى في تعريف الحرية: "القدرة على فعل الشيء، او الامتناع عن فعله.. ان حرية استواء الطرفين هي ادنى درجة من الحرية، وهي بهذا المعنى تعبر عن نقص في المعرفة اكثر مما تعبر عن كمال في الارادة، ولكن ربما يقصد البعض بكلمة استواء الطرفين او اللامبالاة، تلك القدرة الايجابية التي بمقتضاها نستطيع ان نختار هذا او ذاك".(٢٧) وبهذا فان ديكارت بالفعل: "يميز بين نوعين من الحرية:

١)حرية تقوم على تحدد الارادة، وتلك هي الحرية المعقولة.

٢)حرية تقوم على لا تحدد الارادة، وتلك هي حرية استواء الطرفين والحرية الاولى عنده حرية عليا ولاحقة، في حين ان الحرية الثانية حرية دنيا تكون سابقة".(٢٨)

واعتقد ان ديكارت كان في منتهى إعماله لارادته وحريته الذاتية، وذلك عندما تحلل من الافكار القديمة ودعا الى التحرر من الافكار الموروثة ورفضها واعادة صياغتها من جديد، ومرة اخرى بتفعيل الحرية الذاتية، أي انه دعا الى استعمال الحرية لرفض الموروث واستعمال الحرية ثانية لصياغة عالم جديد وفكر جديد، وبالتالي فانه في الحالتين يؤكد على اهمية الحرية في الهدم البنّاء والبِناء المثبت.(٢٩)

نحو صياغة عالم جديد:

الحرية وحكم الأكثرية:

وعرف الكاتب، والسياسي الفرنسي، السويسري المولد بنيامين دي ريبيكيو كونستانت (Constant de Rebecque،Benjamin)(١٧٦٧-١٨٣٠) الحرية بقوله: "الاستمتاع الهادئ بالاستقلال الفردي".(٣٠) بالطبع الكل يحلم بحرية هادئة بعيدة عن المصاعب والمشاق، لكن المصاعب هي جزء من الحياة وتكوينها، لاننا لا نعرف قيمة الحياة وحتى قيمة الحرية اذا لم نتعامل مع الصعوبات، فالاشياء تعرف باضدادها كما يقول الاصوليون والمناطقة، ولا استبعد ان يكون هذا التعريف له علاقة بالاحداث السيئة التي مرت على بنيامين كونستانت، فرغم تأييده للثورة الفرنسية لكنه عارض تصرفات نابليون بونابرت (Napoleon Bonaparte) (١٧٦٩-١٨٢١م)، فنفاه العام ١٨٠٣م، وظل في منفاه احد عشر عاما وعاد الى باريس العام ١٨١٤م بعد سقوط نابليون.

كان الشاعر الراحل محمد الماغوط×، الذي يلقب بالأب الشرعي لقصيدة النتر العربية، هو الذي قال بصريح العبارة في آخر لقاء تلفزي له مع قناة الجزيرة الإخبارية، قبل يومين من وفاته، وكان الماغوط قد توفي الاثنين (٢٠٠٦/٣/٣) عن عمر يناهز ٧٢ عاما، ان الشاعر الحقيقي هو الذي يرفض أية تسوية مع السلطة. وكما راح طوال الوقت الماركسيون العرب واللينينيون منهم بصفة خاصة ينظرون بعين الريبة الى الماغوط وشعره النتري، بل والى جيل شعري ثوري بأكمله، بحجة انه انتاج البورجوازية الصغيرة، معرقلين بذلك حركة الفكر العربي المعاصر الحقيقية الى الثورة الشاملة، راحوا كذلك يهملون ما أمكنهم الاهمال، وبنفس الحجة تقريبا، تراثا طبقيا ثوريا حقيقيا يمثله فيلسوف السياسة وابن الشعب البار، جان جاك روسو، الذي قال عنه كارل ماركس تلك الكلمة الساطعة:(لقد رفض روسو دائما كل تسوية مع السلطة القائمة)

حكمت الحاج

جان جاك روسو مستعادا

ويقول أحد أهم دارسي روسو في الفرنسية انه يمكن ان نملأ مكتبات كاملة بكل ما كتب عن روسو ولكن من الغريب إننا لا نجد ببليوغرافيا كاملة عن أعماله. هناك نقد كثير وجه إلى روسو معتمدا بالخصوص على الحجج التي كتبها روسو نفسه في كتابه الشهير المثير (الاعترافات) فأظهرت هذه الكتابات روسو طفلا مدللا مهووسا متناسية العظمة التاريخية لعمله. وهنا انضاف سبب واه آخر كي تحجم الانتلجنسيا العربية في فترات المد اليساري عن روسو وافكاره العظيمة.

ولكن، لماذا الان نستعيد روسو؟

عن هذا التساؤل غير البرئ سوف يجيبنا د. نور الدين العلوي ذلك الباحث الاكاديمي التونسي الذي قدم لنا مؤخرا ترجمة عربية جديدة لكتاب جان جاك روسو ذائع الصيت: (أصل التفاوت بين الناس) قائلا انه إذا لم يكن الإعجاب بنص روسو كافيا لترجمته فان التعلم منه يظل باستمرار ضروريا للعودة إليه باللغة المتاحة، ولان لغة روسو الأم لم تعد متاحة للكثير من مريدي العلوم الإنسانية نتيجة مشاريع الترجمة العشوائية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ولان نصوص روسو في ظل تراجع القراءة توشك ان تختفي من الرفوف إلا ان تكون تحفا خاصة، فان التنقيب عن روسو وتقريبه إلى قراء العربية يصير مطلبا ملحا دون ان ينفي ذلك ان قيمة روسو تظل فوق الاعتبارات الظرفية للقراءة وهو ما يجعل نصه فوق الزمن.

لقد تداول الناس لجان جاك روسو بشكل واسع كتابه في العقد الاجتماعي واقتطفوا منه ما يروق لكل خطاب ولكل ظرفية غير ان بقية نصوص روسو لم يتم تداولها بنفس القدر رغم أنها تقع موقعا مركزيا في فكره الاجتماعي،ولعل كتابه اصل التفاوت بين الناس يحتل مكانة لا تقل أهمية عن العقد الاجتماعي في عقد أعمال روسو لكنه لا يبدو متداولا بنفس القدر، ويعود ذلك في تقدير المترجم إلى أسباب عديدة منها ضعف الترجمة المتاحة وتأخرها وسيطرة الفكر الماركسي والترجمات الماركسية السوفيتية بالخصوص للفكر الماركسي وتطبيقاته التي أغنت قراء العربية عن العودة إلى غيرها ممن لم يطرح خططا عملية لإنهاء التفاوت بين الناس، فضلا على ان الديموقراطية السياسية التي تأسست على فكر روسو لم تصل قراء العربية بعد لذلك لم تصر الحاجة إلى روسو ضرورية للفهم والتحليل ثم بناء العمل الديموقراطي.

ان نص روسو مجملا مادة أساسية للطلبة المتدرجين في الفلسفة والعلوم الإنسانية والاجتماعية يقربهم إلى الفلسفة السياسية والى الفكر الاجتماعي لكي لا ينحصروا في شعبة ن شعبه أو مذهب من مذاهبه التي تعلم الرؤية الضيقة والأفق المحدود ونص روسو مادة أساسية كذلك للمختصين في العلوم الاجتماعية يبنون عليه التفكير في نشأة التفاوت الاجتماعي والصراعات المترتبة عنه منذ "تجرا أحدهم وسيج أرضا وقال هذا لي" إلى حين عولمة راس المال المتوحش الذي يعيد توزيع الفقر على صعيد عالمي... وروسو كذلك مجملا أو مفصلا للسياسي الذي يزعم رعاية العقد الاجتماعي ويتحيّز لفئة دون أخرى ليستمر قائما يتمتع بالجغرافيا و ينسى التاريخ. وغير هؤلاء كثير فروسو لمن يبحث عن بداية سليمة منذ قرنين أو يزيد ويدور حول نفسه ولا يجد مخرجا في تراثه ولا في تراث الإنسانية الواسع الخصيب...حتى يفقد عواصمه واحدة تلو الأخرى.

لا غرو ان يعلق الدكتور العلوي مترجم الكتاب وهو الروائي الفنان ايضا، بهذه الكلمات المضمخة باللغة الأدبية الجزلة، ولكن قد يكون روسو أكثر من ذلك أو اقل لكنه اسم في العلوم الإنسانية لا يمكن المرور فوقه والادعاء بسلامة التكوين... وعسى ان تقرب هذه الترجمة نصا من أهم نصوص روسو إلى أهل العربية فلهم إلى روسو حاجة لا تؤجل، كما يؤكد مترجم الكتاب.

ومفيد أن نذكر القارئ بعيدا عن هذه الترجمة انه ثمة ترجمتين أخريين لأصل التفاوت بين الناس، أما أولاهما فقد قام بها عادل زعيتر ونشرت سنة ١٩٥٤ ببيروت أما الثانية فقد نشرت سنة ١٩٩١ بموفم للنشر بالجزائر وقد قام بالترجمة بولس غانم وقدم لها ربيع عبد الكريم الشيخ ولم يرد في ثنايا الترجمة أي تعريف للمترجم والمقدم. وإذا خطر لأي قارئ ان يسأل لماذا ترجمة ثالثة لنفس النص فان د. نور الدين العلوي يقول بكل ثقة انه يدعوه إلى ان يجري مقارنة فعلية لا سطحية للترجمات الثلاث وسيكفيه ذلك للإجابة.

لكن القارئ سيجد ايضا أنّ المترجم الثالث، د. العلوي، قد تداول الترجمة بعنوان هو "اصل التفاوت بين الناس" في حين أن المتن يتضمن لفظ اللامساواة وقليلا ما تم استعمال لفظ التفاوت ويبدو انه قد اضطر إلى ذلك لان العنوان الأول قد تم تداوله وشاع بين الناس فصار عنوانا وحيدا قد يوحي استبداله بوجود كتاب ثان فضلا على أن لفظ اللامساواة لم يدخل العربية إلا حديثا وهو من الاشتقاقات التي لا تحظى بالإجماع المعجمي رغم سعة التداول، على حد زعم المترجم، ورغم انه أدل على اختلاف المكانة الاجتماعية من لفظ التفاوت.

ويأمل مترجم الكتاب ان تثير الترجمة الجديدة نقاشا حقيقيا حول هذه المفاهيم والاصطلاحات مثلما نتمنى ان تثير النقاش حول الترجمة الأقرب للفظ (Discours) هل هو الخطاب أم المقال أم المقالة أم الرسالة أم هي معان تتغير في سياق تطور اللغة.

يقول جان جاك روسو في معرض حديثه عن أصل التفاوت بين الناس بأن جميع أسباب رقي الإنسان لا تفتأ تبعده عن حاله الأصلية، وأنه، كلما حشدنا معارف جديدة، زدنا تخلياً عن الوسائل التي بها نكتسب أكثرها أهمية، وأنه قد أصبحنا، هكذا، نبتعد عن الحال التي تمكن من معرفة الإنسان ابتعاداً يقاس بنسبة انصرافنا إلى دراسته من هذا المنطلق كان لا بد لروسو وفي محاولته لاستكناه أصل التفاوت بين الناس، وكان لا بد له من النظر في هذه التغييرات المتتابعة التي طرأت على تكوين الإنسان عند توليه البحث عن الأصل الأول للفروق التي تميز بين الناس، وكان لا بد له من النظر في هذه التغييرات المتتابعة التي طرأت على تكوين الإنسان عند توليه البحث عن الأصل الأول للفروق التي تميز بين الناس، لأنهم، بإجماع آراء البحّاث، كانوا متساوين تساوياً طبيعياً، ما كان عليه كل نوع من أنواع الحيوان، قبل أن تحدث فيه العلل الفيزيوية المختلفة بعض الفروق المميزة التي نراها اليوم. ذلك وبالنسبة لروسو كان لا يمكن القول بأن جميع هذه التحولات الأولى، أياً كانت الأسباب التي سببتها والعوارض عن كل ما يشوهها.

وقد بدأ روسو في محاولته هذه أولاً بسوق بعض البراهين مقدماً بعض الافتراضات، لا أملاً بحل المسألة، بل قصد إيضاحها وحصرها في نطاق حالها الراهنة. وهذا الأمر ليس بالسهل إذ أنه يمثل بحوثاً بالغة حد الصعوبة، والتي لم يفكر فيها إلا قليلاً حتى الآن، وهي وحدها مع ذلك ما بقي للإنسان من الوسائل لإزالة الكثير من العقبات التي تحجب عنه معرفة أسس المجتمع الإنساني الحقيقية، وجهل طبيعة الإنسان هو الذي تعريف الحق الطبيعي غير معيّن ومحوطاً بالغموض. ويقول روسو بأن هذه الدراسة نفسها، دراسة الإنسان الأصلي وحاجاته الحقيقية ومبادئ واجباته التي طرأت عليها، قد غيّرت، دفعة واحدة وعلى نمط واحد، جميع أفراد النوع، ولكن ربما أن بعضهم قد كمل أو فسد واكتسب صفات حسنة أو سيئة لم تكن ملازمة لطبيعته قط، فإن الأفراد الآخرين ظلوا على حالهم الطبيعية زمناً أطول: ذلك كان مصدر التفاوت الأول بين الناس وهو الذي يسهل إثباته هكذا إجمالاً أكثر مما يسهل تعيين علله الحقيقية تعييناً دقيقاً. ذلك يلخص فلسفة روسو في هذا المجال. انها فلسفة بقدر ما تحمل من الوعي والتمرس في طبيعة الأشياء هي تحمل تأملات الإنسان التي تستلهم من فطرته السليمة النظرة المتجردة الأساسية، هي أيضاً الوسيلة الصالحة التي يمكن التذرع بها لإزالة تلك الصعوبات الجمة التي تحيط بأصل التفاوت الخلقي الأدبي، وبالأسس الحقيقية للهيئة السياسية، وبحقوق أعضائها المتبادلة ما بينهم، وآلاف من المسائل الأخرى المماثلة التي لا تقل أهميتها عما يحوطها من غموض.

جان جاك روسو (٢٨ يونيو ١٧١٢-٢ يوليو ١٧٨٨) فيلسوف و كاتب و محلل سياسي سويسري أثرت أفكاره السياسية في الثورة الفرنسية و في تطوير الاشتراكية و نمو القومية. و تعبر مقولتة الشهيرة "يولد الإنسان حرا و لكننا محاطون بالقيود في كل مكان" و التي كتبها في أهم مولفاتة "العقد الاجتماعي" تعتبر أفضل تعبير عن أفكارة الثورية و ربما المتطرفة. كتب روسو الذي يحلو لبعض شارحيه أن يلقبه بابن الشعب عمله الأول رسالة في العلوم والفنون سنة ١٧٥٠ في الوقت الذي كانت فيه قوى الشعب (من غير النبلاء والاكلرويوس) تجمّع قواها استعدادا للهجوم الشامل على النظام القديم وكانت هذه الفترة خصبة بالأعمال العظيمة في مجالات الفكر المختلفة كالفلسفة والعلوم والطبيعة والتاريخ والأخلاق والحقوق الخ... وكانت تضع تصورا جديدا للعالم وتقضي على النظام الإقطاعي والاستبداد والذي كانت الكنيسة الكاثوليكية تعمل وحدها على دعمه إيديولوجيا.

صارت الآداب في منعرج القرن بشكل رئيسي آدابا ملتزمة أو مناضلة على الأقل في عنوانيها الأكثر بروزا. وقد عبرت عن مجملها عن مطالب الشعب المحروم من كل حقوقه السياسية والقائم ضد النظام الإقطاعي الذي كان يسمح لأقلية من الطفيليين بالعيش من بؤس الشعب و تعطيل نمو قوى الإنتاج واكتمال الوحدة الوطنية.

لقد توحد الشعب ضد الحكم الملكي المطلق وضد النبلاء الإقطاعيين وضد الكنيسة التي كانت مركز تجمع كل الأفكار المناهضة للأفكار الجديدة نحو سنة ١٧٥٠ تجمعت كل القوى الشعبية لتكون جبهة موحدة وتقود المعركة الأخيرة نحو الثورة الفرنسية.

غير ان الشعب لم يكن طبقة اجتماعية منسجمة، كانت الغالبية الواسعة منه تتكون من المزارعين الريفيين الصغار الذين كانوا يحتملون كل حقوق الإقطاع وضرائب الملك في حين ان البرجوازية المكونة من كبار الملاك يستفيدون من النظام الضريبي القائم ومن الاستبداد وكانوا هم بدورهم

يستغلون الشعب البائس. أما في القرى فقد كان المزارعون الفقراء الملزمون بالقوانين التقليدية للمجموعات الريفية يقومون ضد المزارعين الكبار الذين يستغلون الأراضي طبقا للأساليب الرأسمالية الجديدة وفيما بين مواسم الزراعة كانوا يخضعون لاستغلال التجار الذين يشغلونهم في المنازل مقابل القوت اليومي فقط. أما في المدن فكان الحرفيون الصغار يعانون من المنافسة القوية للصناعات التحويلية وفي سنوات المحل كان أفواج من ضعاف الحال يموتون جوعا فيما يغتني المضاربون على الحبوب..

وقبل أن تتجلى هذا المواقف المتناقضة تحت راية الثورة فإنها تجلت في النظريات. كان البرلماني الكبير والنبيل الإقطاعي منتسكيو المرتبط بالنظام القديم يحاول في أعماله المصالحة بين النظام الإقطاعي والتطلعات البرجوازية أما فولتير والموسوعيون الأكثر جرأة منه فكانوا يقومون بوضوح ضد النظام القديم ويمثلون مطالب البرجوازية التقدمية وفولتير نفسه وهو ليتيس ودي هولدباخ فكانوا من المصرفيين وأصحاب الأموال وكان برنامج هؤلاء يسير باتجاه التاريخ وينحو إلى تقوية القوى المنتجة. وفي المجال الفلسفي فان البعض منهم يذهب إلى حد الدعوة المادية ويعتقدون أن الإنسان قادر بالعلم وحده على الوصول إلى ماهية الأشياء وتنمية الحضارة وتأمين السعادة على الأرض كانوا يؤمنون بالتقدم أما في السياسة وإذا اتفقوا على أن ساندوا اطروحات ديموقراطية في مواجهة الاستبداد فانه لا يمكن أن نعتبرهم ديموقراطيين لقد كانوا كرماء ويريدون تامين سعادة الشعب... ولكن لم يكن من رأيهم أن هذه السعادة تكون من عمل الشعب بنفسه أي من الدهماء الفاقدة للأنوار وللحس السليم كما يقول دي هولباخ ولأنهم برجوازيون فقد كانوا يحذرون من الدهماء المضطربة ويرون أن إقامة حكم العقل هي من مهام قلة من الرجال المستنيرين..

لكن حكم العقل كما يقول انجلز ليس إلا حكم البرجوازية وقد صار مثاليا فبعد الأرستقراطية بالميلاد تقوم الأرستقراطية بالمال فلا يقوم الحكم إلا باستغلال الطبقات الشعبية، والبرجوازية الصغيرة المتوافقة مع البرجوازية الكبرى ضد النظام القديم ليس لديها أي داع للقبول بتطور الرأسمالية الذي يدفع بها إلى الخسران والحرمان من الملكية وهي لا تربح شيئا من الإقطاع وهي تعاني من النظام القديم ولكن هل كانت فعلا متفتحة على الأفكار الديموقراطية؟ لم يكن لهذه الطبقة من برنامج اقتصادي فعال فهي تتمسك بلا أمل بملكيتها الصغرى المحكوم عليها بالفناء تاريخيا وليس لديها أمل إيجابي يأتيها من النظام القديم. ان طموحاتها تتحول إلى أحلام طوباوية: نظام من المساواة الاجتماعية يصير فيه كل المواطنين ملاكا صغارا، ولان هذا الحلم يتناقض مع التطور الاقتصادي الذي لا مرد له فانه لا يمكنها إلا ان ترثي مسيرة التقدم التي ترى فيها تراجعا أي تراجعها الذاتي لذلك نظرت هذه الطبقة نظرة حذرة إلى التقدم العلمي وسيلة التقدم ولم يمكنها ان تثق في العقل دون ان تحفّظ.

في هذا الإطار يجب وضع أعمال روسو كما يقول المبرز الجامعي الفرنسي ج.ل.لوسركل (J.L.LECERCLE) المختص بروسو وفكره والذي قدم لهذه الطبعة التي بين ايدينا في أصلها الفرنسي، وعلق على النص الأصلي لروسو، الذي أعطى لمجموع الطبقة البرجوازية الصغيرة إيديولوجيا، لقد كان روسو في نفس الوقت متقدما اكثر من الموسوعيين واكثر منهم ورعا، كما يقول لوسركل، وكان أكثرهم حزما وعمقا في التفكير السياسي وهذا هو التناقض العميق في أعماله والناتج لا عن ضعف في عبقريته بل عن الوضع المتناقض للبرجوازية الصغيرة التي كان ينطق باسمها.

× في سنة ١٧٥٥ تقدم مرة ثانية للمناظرة حول مسالة طرحتها أكاديمية ديجون ومنها خرجت مقالة "في اصل التفاوت" وبعدها قام برحلة إلى جنيف حيث عاد فاعتنق الكالفنية،وتحت تأثير الإرهاق من الحياة الباريسية قبل روسو اقتراح السيدة (Mme d Epinay) التي وضعت تحت تصرفه منزلا صغيرا بحديقة قصرها فكان بمثابة محراب تخلى فيه عما يحيطه من شؤون الناس ليكتب وهناك ازدادت خلافاته مع جماعة دائرة المعارف. والنقد البرجوازي الذي وجه إلى روسو في هذا الخلاف ابرز خاصة الخلافات الشخصية بينهم كحذر روسو وشكوكه الكثيرة ورغبته في تعذيب ذاته وطبع ديدرو المنفتح وغيرها من الأسباب ربما تكون قد عمقت خلافات قائمة لكن الخلاف الحقيقي كان خلافا طبقيا فالموسوعيون يستوي في ذلك الجناح المتقدم كديدرو ودي هو لباك أو الجناح المعتدل مثل فولتير كانوا يطورون أفكارا تقدمية للبرجوازية الرأسمالية بينما كان روسو يمثل مصالح الطبقات الديموقراطية الثورية ولكنها الطبقات التي لا تستطيع ان تضع برنامجا اقتصاديا إيجابيا وتلتجئ إلى الآلام و اليوطوبيا

× سنة ١٧٥٨ قطع روسو مع السيدة (Mme d Epinay) وعاد ليستقر في مونت مرنسي في منزل السيد (Mont-Louis) وكانت تلك الفترة الأخصب في حياته الفكرية.

هناك كتب رسالة إلى دالمبار حول الفرجة Lettre a d Alembert sur les spectacles وهي الرسالة التي أجهزت على العلاقة مع جماعة دائرة المعارف. بيّن روسو انه لا يعارض الفن عامة بل انه يتحمس لكل أنواع المسرح بدون تمييز وقد بيّن في مواضع مختلفة انه يؤمن بفضائل الفن في نظام لا يقوم على التفاوت، فالفن عنده يجب ان يقوم على محتوى أخلاقي وحضاري وإذا كان يقوم ضد المسرح الكلاسيكي فلأنه كان يرى فيه فنا أرستقراطيا وهو رأي خاطئ لكنه كان قاعدة للمطالبة بفن شعبي وقد دعا في آخر الرسالة إلى وضع برنامج حفلات شعبية ذات مضمون حضاري وقد تبنت الثورة هذا البرنامج وقد كانت الحفلات الشعبية الكبرى التي دعا إليها دافيد تعتمد على ما نظّر إليه روسو.

× في سنة ١٧٦١ و١٧٦٢ اصدر روسو كتبه الثلاثة الأهم وهي: (La nouvelle Heloise)و Le contrat Social)و (Emile)وكان للكتب الثلاثة طابع تعليمي فقد كان روسو حتى ذلك الحين يفضح المجتمع القائم على التفاوت في الثروات بسبب نهم الإنسان في زمنه وقد بين في أعماله تلك لمعاصريه صورة الإنسان الجديد أو المتجدد، وهذه الأعمال الثلاثة تتكامل ضمن مخطط اكبر كان يريده روسو:

× في العقد الاجتماعي وضع مبادئ مجتمع ديموقراطي قائم على المساواة حيث يمكن للناس ان يكونوا مواطنين تحركهم الفضيلة أي ان يكونوا وطنيين.

× في كتابه هيليويز الجديدة (La nouvelle Heloise) اقترح روسو في مقابل فساد الطبقة الأرستقراطية مثالا أخلاقيا يقوم على العفاف الأسري واقترح في مقابل النبالة والشهامة والايروسية حياة عاطفية نظيفة

× لكن تفكير روسو في زمنه دفعه ومن اجل بناء مجتمع سليم إلى إعادة تكوين الفرد وهو الدور الذي يحتله كتاب (Emile) في مخطط روسو التربوي المتوافق مع قوانين الطبيعة.

أدى نشر كتاب (ايميل) إلى مطاردة روسو، فقد منع البرلمان الكتاب من الصدور وأعلن مؤلفه مطلوبا للعدالة وكان على روسو ان يهرب باستمرار و أطلق ارشيدوق باريس ضده " فتوى" ولم يكن البروتستانت اكثر ودا له من غيرهم فحكم عليه في جنيف فهرب إلى (Motiers) في منطقة (Neuchatel) فأثار القساوسة العامة ضده فالتجأ إلى جزيرة سان بيار (Saint Pierre-) في منطقة بارن (Berne) فلم يتأخر مجلس شيوخها ان اطرده فعبر الالزاس إلى إنجلترا حيث دعاه الفيلسوف (David Hume) دافيد هيوم ولكن سرعان ما اختلف الرجلان فعاد روسو إلى فرنسا وظل يعيش شريدا إلى ان استقر أخيرا بباريس سنة ١٧٧٠ عندما عفي عنه من قبل السلطة القائمة. وإلى حين وفاته سنة ١٧٧٨ في (Ermeonville) فرض على نفسه عزلة فلم يقبل إلا زيارة عدد قليل من الأصدقاء وزاد حذره من الجميع فقد كانت الكنائس ضده وكان البرلمان ضده والسلطة الملكية والفلاسفة، لقد كان في ظاهر الأمر رجلا معزولا لكن لم يكن لاحد من تأثير ومن أنصار متحمسين مثل ما له فقد كانت تأتيه من أصقاع كثيرة (بولونيا، كورسيكا) مطالب ليحرر لشعوبها دساتير ولم يتوقف اتباعه على اقتحام عزلته، لقد كان الرجل المطارد المعزول يمارس على الناس سلطة لم تكن لمعذبيه مثلها ولقد كتب كثيرا غير ان طبيعة عمله تغيرت فقد كان يدعو الناس إلى التأمل في نموذج حياته لكي لا ينحنوا أمام الظلم وأمام الترهات وان ينحنوا فقط للفضيلة وللمجد الحقيقي وقد خرج من كتابات تلك المرحلة كتابه "الاعترافات"(Les confessions) ثم تبعه (Reveries d un promeneur solitaire) الذي لم يسعفه الموت ليكمله.

يقول محقق هذا الكتاب ج.ل.لوسركل: لقد كان كتاب "الاعترافات" سيرة لروحه ولمشاعره اكثر مما كان سيرة لحياته وهو عمل خارق من وجهة نظر التحليل النفسي وهو مرافعة قيمة عما كان يجده ولم يكن دائما عادلا مع أعدائه وهو في نفس الوقت غنائية إبداعية بل هو إحدى أروع القصائد الغنائية العالمية. ان روسو هو سيد الأدب العاطفي الغنائي والذي سيزدهر في الحقبة الرومانسية لقد كان لفر دانيته طابع إيجابي ففي الوقت الذي كان الفرد الشعبي سجينا في الأطر الإقطاعية ومهانا ومحروما من حقوقه خرج الفرد روسو ليثبت مكانته غير القابلة للتعويض ويكتشف في نفسه غني الروح غير المحدود ويكشف للعالم كنوز الحياة الداخلية للإنسان وكل القوى الكامنةفي الشخصية الإنسانية.

أفلم يكن إذن شاعرنا الراحل الكبير، ابن الشعب البار ايضا، والخارج من اتون الطبقات، محمد الماغوط، ينهل من معين روسو، ربما تأثرا بسيرته في "الاعترافات"، أو تأثرا بمواقفه وأفكاره، وهو يقول في آخر كلمات له على شاشة التلفزيون، ان الشاعر الحقيقي هو الذي يرفض كل تسوية مع السلطة القائمة؟

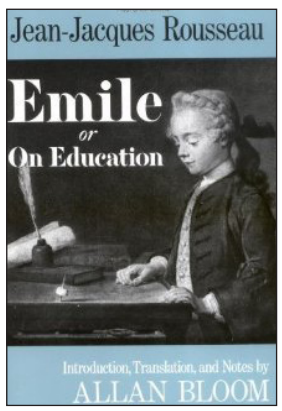

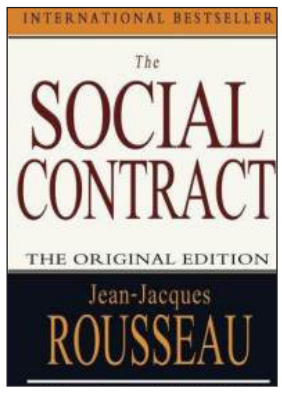

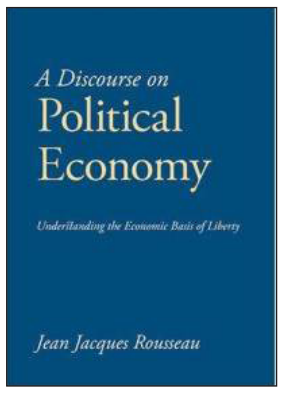

ملاحظات:

– صدرت ترجمة هذا الكتاب أصل التفاوت بين الناس سنة ٢٠٠٥ بتونس عن دار المعرفة المرحة Le Gai Savoir لصاحبها الناشر بدر الدبوسي. وهو ترجمة لكتاب جان جاك روسو
Discours sur l origine et les fondements de L inégalité (parmi les hommes
وقد تمت الترجمة باعتماد طبعة صادرة سنة ١٩٧١ عن دار النشر الفرنسية بباريس editions sociales Les.

– المترجم د. نور الدين العلوي روائي تونسي يعمل استاذا العلم الاجتماع بالجامعة التونسية، يكتب الرواية والقصة القصيرة ويعمل خبيرا في الضمان الاجتماعي ويهتم بروسو ضمن اهتمام أوسع بالمسالة الاجتماعية وبالترجمة لمفكري عصر النهضة نشر الى حد الان ثلاث روايات هي ريح الايام العادية سيراس ١٩٩٨ ومخالة السراب المركز الثقافي العربي ٢٠٠١ والمستلبس دار الجنوب ٢٠٠٥.

– في لفتة تعبر عن مدى الاهتمام الذي باتت تبديه الولايات المتحدة بالشؤون السورية، عبرت واشنطن عن "حزنها" لرحيل محمد الماغوط ووصفت الخارجية الماغوط بأنه كان مدافعا عن الحرية والعدالة. وكان الماغوط قد توفي بعد صراع مع المرض وعقود من الإهمال الرسمي، رغم تنبه الحكومة إليه عام ٢٠٠٢ حين منح وساما من الرئيس السوري بشار الأسد. لكن من المعروف أن كتاباً أقل شأناً منه لقوا رعاية ودعماً من جانب الحكومة، بل إن كثيراً من الذين شاركوا معه في أعماله المسرحية والفنية (من ممثلين وغيرهم) كان حظهم من الاهتمام والمكاسب ما يفوق ما حصل عليه الماغوط. كما عانى الماغوط خلال حياته الأدبية من السجن السياسي، وفي أواخر حياته أضيفت إليها المعاناة من الوحدة.

وقال المتحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية آدم ايريلي: ان "الماغوط كان حقاً فريداً، كان مثقفاً يرفض المساومة وصوتاً مستقلاً من اجل الحرية والعدالة في العالم العربي". وتابع المتحدث في بيان: ان "إنتاجه وحياته يشهدان على قدرة الفرد والروح الخلاقة". وختم بيانه بقوله: "نتقدم بأصدق التعازي الى عائلته ومحبيه الكثر".

وكانت ذكرت صحيفة "الحياة" اللندنية ان الماغوط توفي "على اريكته في الصالون وكان في يده اليمنى عقب سيجارة وفي اليسرى سماعة الهاتف" اثر اصابته بنوبة قلبية.

يذهب بعضهم إلى أن ثمة تناقضاً أو تبايناً في رؤية جان جاك روسو بين "أصل التفاوت بين الناس" و"العقد الاجتماعي"، وهو مذهب من يتوقف عند تقريض الحالة الطبيعية الذي يشغل جزءاً مهماً من كتاب أصل التفاوت؛ إذ افترض روسو أن التفاوت من أبرز سمات الحالة المدنية، إن لم يكن أبرزها، في حين لا يكاد التفاوت يظهر في الحالة الطبيعة. وقد كان محقاً في ذلك، فـ "الحالة الطبيعية" هي حالة الاختلاف، لا حالة تفاوت اجتماعي، اختلاف جميع الأشياء وجميع الظواهر وجميع الأنواع وجميع أفراد النوع الواحد. ولا اختلاف بلا تشابه وتماثل، ومن ثم فإن إحدى أهم بدايات الاجتماع البشري هي إدراك التشابه بين أفراد مختلفين في زمان ومكان محددين. وفي ضوء هذا الإدراك نشأ نوع من تعاون وتساكن مهدا لظهور اللغة التي صارت شرطاً لازماً من شروط الاجتماع، وظهور الثقافة التي بها صار الإنسان إنساناً.

جـان جاك روسـو في أصـل "التفـاوت بين الناس"

بقلم: عبد الكريم الجباعي

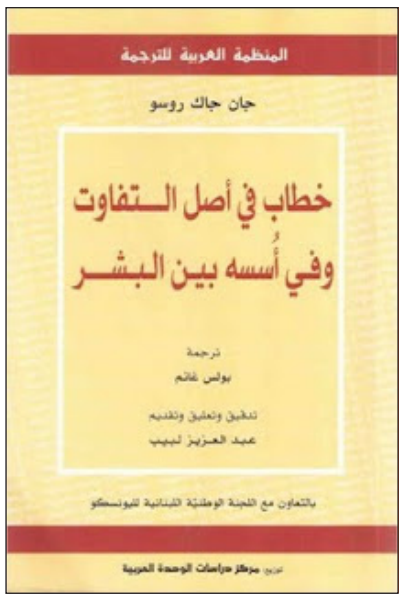

فقد انطلق روسو من قول أرسطو: "للبحث فيما هو طبيعي يجب النظر إلى الأشياء التي لا تزال وفق الطبيعة، لا في ما فسد منها". واعترف هو نفسه بصعوبة معرفة الحالة الطبيعية التي تفصلنا عنها آلاف السنين، ولم يكن قد تبقى منها شيء في زمنه، بل قبل ذلك بآلاف السنين، إذ قال: "ليس بالهين تمييز ما هو أصلي مما هو اصطناعي في طبيعة الإنسان الحالية، ولا بالسهل أن نتعمق في معرفة حال لم يبق لها وجود، أو لم تكن موجودة قط، ولن توجد أبداً على أصح الفروض. ... فما التجارب الضرورية للتوصل إلى معرفة الإنسان الطبيعي، وما الوسائل اللازمة لإجراء مثل هذه التجارب في باطن المجتمع؟" (جان جاك روسو، أصل التفاوت بين الناس، ترجمة بولس غانم، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، ١٩٧٢ص٢٨). فإن تقريض الحالة الطبيعية، التي افترضها روسو وغيره لا يعدو أن يكون تقريضاً لهبات الطبيعة: للحياة و"الحرية" والمساواة (إذا اعترفنا بأن الحرية والفكر وجهان لحقيقة واحدة، فإنه لا يسعنا أن نتحدث عن الحرية في الحالة الطبيعية، على نحو ما وصفها روسو. ونعتقد أن الحرية لم تعرف بادئ المر إلا باختراع الأدوات وبداية انفصال الإنسان عن الطبيعة، ولم تتجل في الواقع إلا بظهور الملكية.)، وهي أثمن ما وهبته الطبيعة للإنسان، وتقريضاً للتوازن والاعتدال؛ الحياة التي باتت مهددة بالحروب والنزاعات والجرائم واختراع أدوات القتل والدمار، والحرية التي قوضتها العبودية والتابعية والاستبداد، والتوازن والاعتدال اللذين عصفت بهما الشهوات والنزوات والأهواء وفورة الحاجات، وطوحت بهما الأنانية والجشع والحقد والكراهية.

فهو يقول في خطابه إلى جمهورية جنيف: "أما وقد أسعدني الحظ فأبصرت النور بينكم، فكيف يسعني أن أتعمق في بحث المساواة التي جادت بها الطبيعة على الناس والتفاوت الذي أقامه هؤلاء الناس، دون أن أفكر بتلك الحكمة العميقة التي بفضلها عرفت هذه الدولة أن توفق بينهما توفيقاً حسناً، بحيث تعاون كلاهما على حفظ النظام العام وسعادة الأفراد تعاوناً أكثر ما يكون قرباً إلى الناموس الطبيعي وملاءمة للمجتمع الإنساني" (جان جاك روسو، أصل التفاوت بين الناس، ترجمة بولس غانم، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، ١٩٧٢، ص ١١). والناموس الطبيعي أو قوانين الطبيعة، عند روسو وغيره من معاصريه وسابقيه، هي قوانين العقل، وكذلك قوانين المجتمع وقوانين التاريخ.

لعل حديث روسو عن المساواة التي جادت بها الطبيعة، لا يعني أن حالة الجماعة الطبيعية المفترضة كانت حالة مساواة، إلا بالسلب أي بالمعنى الذي نقصده حين نقول إن أفراد الجماعة الطبيعية لم يكونوا متفاوتين اجتماعياً، وكذلك الأسر أو العائلات، لعدم وجود موضوع يتفاوتون فيه، كالملكية. وهذا يعني أن البشر لم يدركوا معنى المساواة إلا بعد إدراك معنى التفاوت والاكتواء بناره، فإن عدم التفاوت هو عدم المساواة. إذا كانت الجماعة الطبيعية لم تعرف التفاوت فإنها لم تعرف المساواة أيضاً. بل إن التفاوت هو ما جعل المساواة مطلباً من مطالب العقل ومطالب الروح الإنساني، وما جعلها ممكنة واقعياً. وكل ما هو واقعي هو نسبي وقياسي. ولعل افتراض الحالة الطبيعية كان مجرد افتراض نظري للتدليل على أن الاجتماع البشري، منذ نشوئه لم يكن من صنع الطبيعة، بل من صنع الإنسان، ومن ثم يغدو افتراض الحالة الطبيعية تناقضاً في ذاته، إلا إذا عنينا بها الجماعة البدائية أو الجماعة التي تقوم على أساس العلاقات الطبيعية، علاقات القرابة الدموية/ النسلية، التي لا تزال بعض المجتمعات توليها كثيراً من الاهتمام، كالانتساب إلى آل البيت في أيامنا.

المهم هنا هو إشارة روسو إلى أن المجتمع المدني، مجتمع التفاوت، صناعة بشرية أو إنتاج بشري، لا من إنتاج الطبيعة ولا تجل لإرادة عليا مفارقة. وإلى أن الدولة الرشيدة هي التي توفق بين المساواة والحرية والاعتدال، التي جادت بها الطبيعة على البشر، وبين التفاوت الذي أقامه هؤلاء بأنفسهم، وهذه إشارة لامعة إلى مبدأ الدولة الرشيدة. في جميع الأحوال، الدولة التي مبدؤها الاعتدال والتوازن بين حرية الأفراد الذاتية وبين حكم القانون، وبين المساواة والتفاوت. ليس بوسعنا اليوم، ولم يكن بوسع روسو، معرفة الحالة الطبيعية إلا انطلاقاً من الحالة المدنية، وما ذلك إلا لأن عنصراً طبيعياً أو عناصر طبيعية ستظل ملازمة للإنسان في الحالة المدنية المفتوحة على النمو والتقدم، إلى جانب العناصر الروحية، التي هي من طبيعة الله. ولم يكن ممكناً أن تكون الحالة المدنية كذلك، أي مفتوحة على النمو والتقدم، لولا مبدأ النقص والاحتياج الملازم للإنسان، فرداً وجماعة ومجتمعاً مدنياً. علم الإنسان ناقص دوماً، وعلم الحيوان كامل، كما لاحظ باسكال.

فرضية روسو هنا، كما في كتاب "العقد الاجتماعي"، تقول إن البشر خلقوا أحراراً متساوين، (وقد قالها عمر بن الخطاب قبله بنحو ألف عام)، ولكن الناس منذ أول اجتماع لهم أقاموا تفاوتاً فيما بينهم. وجعلوه بمنزلة القانون الأخلاقي، وأقاموا لذلك سلطات دينية وزمنية لم تكن في واقع الأمر سوى سلطة الملكية الخاصة العمياء ذاتها. ومن ثم فإن الدولة الرشيدة هي تلك التي توفق بين المساواة الطبيعية والتفاوت الاجتماعي توفيقاً حسناً، بحيث يتعاونان كلاهما على حفظ النظام وسعادة الأفراد تعاوناً أقرب ما يكون إلى الناموس الطبيعي وملاءمة للمجتمع الإنساني. ولا يتحقق مثل هذا التعاون إلا حينما يكون لهيئة السيادة وللشعب مصلحة واحدة، هي المصلحة نفسها لكليهما، حتى لا تنتجه جميع حركات الآلة المسيرة إلا نحو السعادة العامة الشاملة؛ وهذا لا يمكن أن يكون ما لم يكن الشعب والسيد شخصاً واحداً، في كنف حكومة ديمقراطية تلطفها الحكمة.

في مثل هذه الدولة يكون الخضوع للقوانين هو ذروة الشرف، ولا يستطيع أحد من مواطنيها القول إنه فوق القوانين .... ؛ لأنه لو وجد في الدولة، أياً كان نظامها، رجل واحد لا يخضع لقوانينها لكان جميع من فيها تحت تصرفه المطلق" (المصدر نفسه ص ١٢).

معرفة الإنسان هي أكثر المعارف جدوى وأقلها تقدماً. وهذه المسألة من أصعب المسائل التي تعرض لها الفلاسفة، (اعرف نفسك)، فالإنسان أشكل عليه الإنسان، كما قال أبو حيان التوحيدي. فكيف نستطيع الاهتداء إلى أصل التفاوت بين الناس إذا لم نبدأ بمعرفتهم؟ وكيف يتوصل الإنسان إلى معرفة نفسه كما كان يوم برته الطبيعة وما أحدثه تعاقب الأزمان وتغير الأحوال فيها من تطور وتبدل وارتقاء؟. وهل بوسعنا معرفة الإنسان من دون معرفة عالم الإنسان، المجتمع والدولة بوصفهما إنساناً مموضعاً، بتعبير كارل ماركس، أو بوصفهما من أبرز تجليات الروح الإنساني؟.

فرضية روسو في "أصل التفاوت" هي ذاتها في "العقد الاجتماعي"، الإنسان خيّر بالفطرة أو مفطور على الخير، كتمثال جلوكوس الذي ألح في تشويهه البحر والزوابع، حتى غدا أكثر شبهاً بوحش منه بإله. فـ "مما هو أشد قسوة أن جميع أسباب رقي الإنسان لا تفتأ تبعده عن حالة الأصلية"، حال الحرية والمساواة والاعتدال والرأفة التي كانت تقوم مقام القوانين. وفي العقد الاجتماعي يقول: "ولد الإنسان حراً طليقاً، ومع ذلك، فهو مثقل بالقيود في كل مكان. ولرب رجل يتوهم أنه سيد الآخرين، وهو لا يني يرسف في أغلال

من العبودية هي أثقل من أغلالهم" (العقد الاجتماعي ص ١١- جميع الإحالات المحورة بين قوسين في المتن تحيل على كتاب العقد الاجتماعي). فالمسألة إذن هي نقد المجتمع المدني، بما هو نسق لإنتاج التفاوت، ومن ثم لإنتاج العبودية والاستبداد والبؤس والشقاء، جراء التنافس والكيد والأنانية والجشع والإفراط في الشهوات والأهواء والملذات الحسية على كل صعيد. ولا سيما على صعيد الامتيازات التي يتمتع بها بعض الناس إجحافاً بحقوق الآخرين. والمجتمع المدني نفسه نسق للعمل في سبيل تقليص التفاوت وعدم المساواة، لأنه فضاء الحرية.

وعلة ذلك كله هي "حالة التفكير المضادة للطبيعة، فالرجل الذي يفكر هو حيوان مُفسَد" (المصدر نفسه، ص٤٦. يصعب قبول هذه الفرضية، إلا إذا كانت الحالة الطبيعية هي الحالة الحيوانية فحسب؛ لأن التفكير هو ماهية الإنسان والتعبير الفعلي عن حريته. فإذا كانت حالة الطبيعة حالة حرية، فإنها حالة حرية التفكير، بلا أي قيد من القيود الطبيعية أو من تلك التي صنعها الإنسان لنفسه.) ؛ وإذ يألف الإنسان المجتمع، ويصير عبداً، يصبح ضعيفاً رعديداً ومتزلفاً متملقاً؛ وإذ يصبح نمط معيشته رخواً مخنثاً تضطرب قوته وشجاعته؛ فجميع أسباب الرفاهية التي يوفرها الإنسان لنفسه والتي تزيد على ما يوفره للحيوانات التي يروضها على الألفة هي جميعها أسباب للتعجيل في فساد نوعه (المصدر نفسه، ص٤٧-٤٨). ابن خلدون كان أكثر دقة وتحرزاً.

المجتمع المدني هو نتاج التفكير والعمل بمقتضى التفكير، أي نتاج الحرية. ومن ثم فهو نسق لإنتاج القيود التي يصنعها الإنسان الحر لنفسه فيصير عبداً لمنتجات عمله، عمل الرأس واليدين؛ حتى حينما يظن أنه سيد على آخرين. هنا يضع روسو يده على جدلية السيد والعبد التي تتبدى في ضوئها القيمة الحقيقية للحرية، إذ السيد هو عبد لمن يستعبدهم، لا لأنه يستعبد من هم تجلي ماهيته الإنسانية فحسب، بل لأن سيادته متوقفه عليهم، فالعبودية هي أساس هذه السيادة ومحتواها. "العقل يفسد الحواس، والإرادة تظل تتكلم عندما تسكت الطبيعة.. (المصدر نفسه، ص٤٩-٥٠) "ولكل حيوان أفكار، لأن له حواس، وهو يوفق بين أفكاره إلى حد ما، ولا يختلف الإنسان عن الحيوان، من هذه الناحية، إلا بنسبة الأكثر إلى الأقل. حتى إن بعض الفلاسفة ذهبوا إلى أنه يوجد من الفرق بين إنسان ما وإنسان آخر أكثر مما يوجد بين هذا الإنسان وحيوان ما. ولذلك لم يكن تمييز نوع الحيوان قائماً على الإدراك بقدر ما هو قائم على كون الإنسان عاملاً حر التصرف. وبهذه الحرية تظهر خاصية روحانية نفسه" (المصدر نفسهن ص ٥٠). وخاصية التفكير هذه مؤسسة على خاصية التدرج في الاكتمال، أي على قابلية التحسن، إذ معرفة الحيوان تامة كاملة، يمكن أن تنقص ولكن لا يمكن أن تزيد، في حين معرفة الإنسان ناقصة دوماً ومفتوحة على النمو والتقدم، وكذلك جميع قواه. إن ما هو جوهري في المجتمع المدني والدولة السياسية بالتلازم الضروري هو الحرية، لأنها جوهر الإنسان/ الفرد وماهيته. والفرد الطبيعي المسوق بسائق حاجاته رغباته وأهوائه ونزواته وأشواقه وأحلامه ومنفعته الخاصة هو أساس المجتمع المدني، والمواطن الذي يتعلق بقيم الخير والحق والجمال وسمو القانون هو أساس الدولة السياسية، التي تحمل في ذاتها إمكانية التحول إلى دولة ديمقراطية.

"ومهما يقل علماء الأخلاق، فإن الإدراك الإنساني مدين بكثير للأهواء التي هي أيضاً مدينة كثيراً لهذا الإدراك: فبنشاط الأهواء وعملها يتكامل عقلنا، ونحن لا نسعى لالتماس المعرفة إلا لأننا نرغب في الاستمتاع، وليس في الإمكان أن نفهم لم يتكلف من لا يرغب ولا يرهب عناء إجهاد العقل بالتفكير والاستدلال. والأهواء بدورها تستمد أصلها من حاجاتنا، وتطورها من معارفنا، لأنه من المحال أن تصدر الرغبة أو الرهبة إلا من أفكار بنيت عليها واتجهت إليها أو من محض اندفاع صدر من الطبيعة. والرجل المتوحش الذي حرم جميع ضروب المعرفة لا يحس إلا بأهواء من هذا النوع الأخير، ولا تتجاوز رغباته حد حاجاته الطبيعية. وكل ما يعرفه من خيرات الطبيعة هو الغذاء والأنثى والراحة. وكل ما يخافه من شرورها هو الألم والجوع. وإنما قلت الألم، ولم أقل الموت، لأن الحيوان لن يعرف أبداً ما يعنيه الموت. فمعرفة الموت وأهواله هي إحدى أوليات المعارف التي اكتسبها الإنسان عند ابتعاده عن الحال الحيوانية. ... إن تطورات ارتقاء العقل لدى جميع الأمم كانت تسير بنسبة حاجات الشعوب" (المصدر نفسه ص ٥٢).

الحاجة والخوف ركنا الشقاء البشري، والمجتمع المدني، مجتمع الحاجات، بتعبير هيغل، يضاعفهما أضعافاً، ولا أمل في أن يستعيد الإنسان حريته ما لم يستأصل أسبابهما التي تضرب جذورها عميقاً، لا في تربة المجتمع المدني، وصولاً إلى الملكية الخاصة فحسب، بل في تربة الوجود الإنساني ذاته، في اغتراب الإنسان عن منتجات عمله وعن ذاته. ولعل هنالك صلة ما بين اعتدال الإنسان في حالة الطبيعة وعدالة الطبيعة ذاتها. الطبيعة عادلة في توزيع هباتها، إذ "لو صح أن الطبيعة، عند توزيعها لهباتها، قد خصت بعضهم بهبات أوفى، إيثاراً منها لهم على غيرهم، كما زعم بعض الكتاب، فما هي المزايا التي يفيدها من الهبات أولئك المفضلون، وأي ضرر تلحقه بالآخرين، وهم في حال لا تمكنهم من إنشاء أي نوع من العلاقات فيما بينهم؟ أجل أية فائدة للجمال حيث لا حب؟ وما فائدة العقل لأناس لا يتكلمون والحيلة لقوم ليست لهم أعمال؟ (المصدر نفسه ص ٧٤). "التفاوت يكاد لا يكون محسوساً في حال الطبيعة".

"كل إنسان يستطيع أن يدرك أن الاستعباد، إذ هو ناشئ من تبعية الناس بعضهم لبعض، ومن الحاجات المتبادلة التي تجمعهم، فإنه من المستحيل استعباد إنسان، دون أن تضعه قبل ذلك في حال لا يستطيع فيها الاستغناء عن غيره، وهذا الوضع، إذ لم يكن موجوداً في حال الطبيعة، فإن كل إنسان كان فيها طليقاً من النير، وكانت شريعة الأقوى باطلة" (المصدر نفسه ص ٧٥). هكذا يضع روسو المسألة في "أصل التفاوت" وفي "العقد الاجتماعي"، فذروة الاستعباد والفساد هي النظام الاستبدادي الذي يضع الناس في حالة تبعية دائمة وخوف دائم، وليس سوى إهانة للكرامة البشرية وإهانة للعقل. وهو لا يبعد هنا عن تعريف أرسطو للعبد بأنه من ضعف روحه وقلت حيلته فأتبع نفسه لغيره. والسيد، وفق جدلية السيد والعبد أو السيد/ العبد، هو من ضعف روحه وقلت حيلته فاستتبع غيره، وجعلهم في حاجة دائمة إليه، وهذه ليست في الواقع سوى حاجته الدائمة إليهم، واعتماده في جميع شؤون حياته عليهم.

لقد وضع روسو يده على أصل التفاوت في الحالة الاجتماعية المدنية في قوله: "أول من سوَّر أرضاً فعن له أن يقول: "هذا لي" ووجد أناساً على قسط كبير من السذاجة فصدقوه، كان المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني. ألا كم من جرائم وحروب واغتيالات، وكم من ويلات وبؤس وفظائع كان أبعدها عن الناس وكفاهم شرها رجل قد هب فاقتلع الأوتاد وردم الحفر وصاح بالناس قائلاً: "حذار أن تصغوا إلى الدجال المحتال، فإنكم لهالكون إذا أنتم نسيتم أن الثمار للجميع وأن الأرض ليست ملكاً لأحد" (المصدر نفسه ص ٧٩). روسو هنا يمهد الطريق لكارل ماركس، ولكن من دون أن يؤسس لاستبدال دكتاتورية بأخرى أو استبدال الملكية الخاصة بملكية لا أحد أو بملكية "الحزب الثوري" و"الطليعة الثورية". ولم يكن استبداد الطليعة الثورية أقل فظاظة ووحشية من سواه. فإن مبدأ العدالة يقترن في فكر روسو بمبدأ الحرية، ولا ينبغي أن تفوتنا الصلة بين العدالة والاعتدال، ولذلك لاحظ روسو أن الاعتدال من أبرز خصائص الديمقراطية ومن أبرز سمات الجمهورية ومن أبرز سمات الحكم الرشيد.

ينبغي التوقف ملياً عند مسألتين نتج من عدم جلائهما خلط كثير لدى الاشتراكيين من العرب على الأقل، من دون أن نستثني كثيرين من غير العرب. الأولى تتعلق بالفرق المفهومي بين الملكية والملكية الخاصة، التي نسب إليها روسو الجرائم والحروب والاغتيالات والويلات والفظائع. فالصفة

حد وفرق؛ وهذه أي الملكية الخاصة لا تعدو أن تكون أحد أشكال الملكية فحسب. وقد كان ولا يزال في كل مجتمع عدة أشكال للملكية، كالأوقاف والأرض المشاع وملكية الدولة وملكية الجمعيات والنوادي وغيرها، إلى جانب الملكية الخاصة، التي حكمت التاريخ الاجتماعي الاقتصادي والسياسي حتى يومنا. أما الملكية، من دون أي صفة، فإنها ملازمة للعمل الاجتماعي، أي للعمل بمقتضى التفكير بوجه عام، وملازمة للإنتاج الاجتماعي، إذ كل إنتاج هو تملك. ومن ثم فإن معالجة البؤس والجرائم والحروب والويلات يقتضي معالجة أسبابها الكامنة في الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، لا إلغاء الملكية، أو جعلها ملكية لا أحد، وإعادة إنتاج "حق الأقوى" في الاستيلاء، على نحو ما رأينا في الاشتراكيات العربية أو التأخراكيات العربية، بتعبير ياسين الحافظ، فهذه، أي الملكية، هي تعين الإرادة الإنسانية وتحولها إلى إرادة موضوعية، وهي أساس الحرية وأساس الاستلاب والاغتراب في الوقت ذاته.

والثانية تتعلق بالارتباط الضروري مفهومياً وواقعياً بين الحرية والمساواة والعدالة، لأن التفاوت الاجتماعي الذي جعلنا ندرك المساواة، هو نفسه الذي جعلنا ندرك العدالة. فالتفاوت الاجتماعي هو واقع عدم المساواة وعدم العدالة في الوقت ذاته وبالمقدار ذاته. العدالة هي التجسيد العملي للمساواة. ومن ثم فإن التطلع إلى مجتمع اشتراكي يستجيب لمطالب العقل ومطالب الروح الإنساني هو تطلع إلى مجتمع قائم على الحرية والمساواة والعدالة، وهو المجتمع الديمقراطي بالتمام والكمال. ولكن هذا المجتمع الديمقراطي لا يمكن أن يتحقق بضربة واحدة، ولا يمكن أن يتحقق بالعسف والإكراه، ومحاولة فرض "السعادة، على المجتمع. بل بنمو الروح الديمقراطي ونمو الوعي الأخلاقي في كل مجتمع على حدة نمواً تدريجياً وتراكمياً حتى يصير الشعب والسيد شيئاً واحداً. لقد ألغت بعض الدول الملكية الخاصة بمراسيم، ولكن ذلك لم يكن نتيجة التطور الثقافي ونمو الوعي الأخلاقي، ولم يتأسس على مبادئ الحرية والمساواة والعدالة وحكم القانون وسيادة الشعب، بل على العكس من ذلك، كانت الاشتراكية المزعومة معادية للديمقراطية ومجافية لحقوق الإنسان، وأنتجت من الويلات أمثال ما أنتجته الملكية الخاصة.

الحقوق المدنية والحقوق السياسية كلها، التي عينتها الملكية الخاصة وما نجم عنها من علاقات اجتماعية، متناقضة مع الحق الطبيعي تناقض الحالة المدنية والحالة الطبيعية. فالمجتمع "المدني" حوَّل الاختلاف الطبيعي إلى تفاوت اجتماعي هو أساس جميع المشكلات، إذ قادت الملكية الخاصة البشرية إلى عبودية صريحة في البدء، ثم إلى نوع من عبودية خفية فيما بعد (مع نشوء نمط الإنتاج الرأسمالي)؛ والتبعية والعبودية اسمان لمسمى واحد. ولكن المسألة لا تستنفد في هذه الحيثية البسيطة، فالوجوه الأخرى للملكية الخاصة تتجلى في نشوء الحقوق المدنية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وفي نشوء الأعراف الاجتماعية والشرائع الدينية والقوانين الوضعية، وفي ظهور الممالك والإمبراطوريات، ونمو الحضارة الإنسانية، ثم في ظهور المجتمع المدني الحديث والدولة الحديثة أو "الأمير الحديث، ("إذا كان لنا أمير فلكي يقينا من أن يكون لنا سيد"؛ الأمير يحكم بمشيئتنا أما السيد فيحكم بمشيئته). الملكية الخاصة، كانت ضرورية، وحتمية، وكانت تحمل في أحشائها كل هذه الثروة المادية والروحية التي يحملها العمل الاجتماعي.

بيد أن الملكية الخاصة يفترض أنها تابعة لفكرة أو أفكار سابقة عليها وليست سوى تطورها التدريجي، إذ إن أول شعور أحس به الإنسان هو شعوره بوجوده، وأول عناية بذلها هي العناية ببقائه، ولكن هذا وذاك إحساسان حيوانيان محضاً تطورا جراء محاولات التغلب على المصاعب باختراع الأدوات ثم بالاختلاط والتساكن، بعد اكتشاف أوجه التشابه بين أفراد النوع في التفكير والسلوك. "وإذ علمه الاختبار أن حب رفاهية العيش هو الدافع الوحيد للأعمال البشرية وجد نفسه في حال يميز فيها الفرص النادرة التي فيها تضطره المنفعة المشتركة إلى الإعتماد على مساعدة أمثاله، ويتبين أيضاً الفرص الأكثر ندرة التي كانت المزاحمة تدعوه إلى وجوب الحذر منهم. ففي الحال الأولى كان يتحد معهم ضمن قطيع أو ضمن شركة حرة نوعاً ما غير ملزمة لأحد، لا تطول مدتها إلى أبعد من انقضاء الغرض الذي أنشئت لأجله. وفي الحال الثانية كان كل منهم يسعى إلى نيل منفعته، أكان ذلك بالقوة الظاهرة إذا اعتقد إمكانها، أم بالليقة والحيلة إذا شعر بأنه أضعفهم.

عن كتاب روسو والديمقراطية الحديثة.. الدار البيضاء/ ١٩٩٨

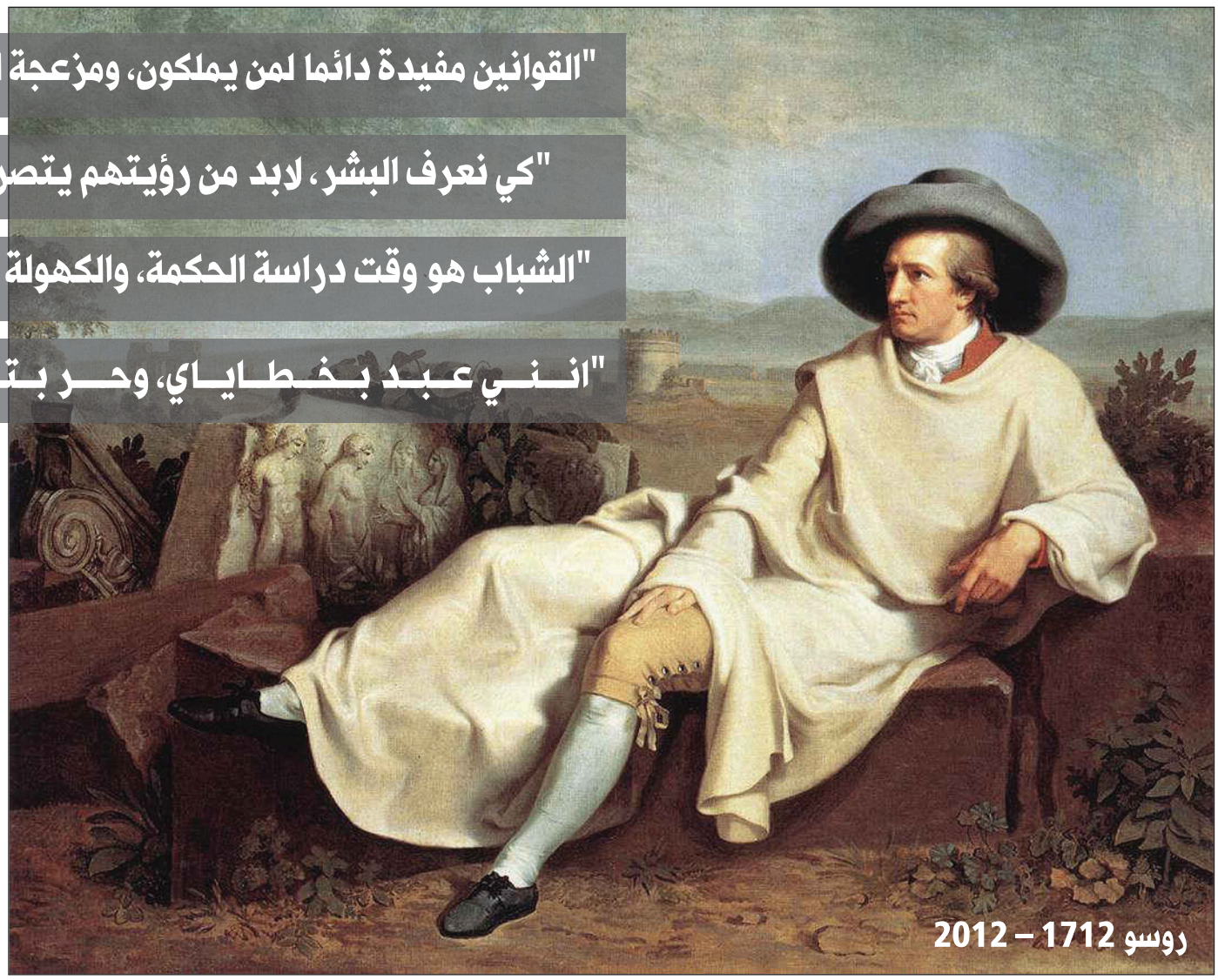

ثلاثمائة عام على ميلاد صاحب "العقد الاجتماعي" جان جاك روسو

فيلسوف التنوير في عشر كلمات

دينا مندور

كلمات وكلمات لجان جاك روسو صاحب "العقد الاجتماعي" و "إميل او التربية"، الكاتب والفيلسوف وصاحب النظريات السياسية، انه مفكر العدالة والتربية والموسيقى والطبيعة، رجل عصره بكل ما تحمله الكلمة من معان.

ولد روسو منذ ثلاثمائة عام بالتمام والكمال في ٢٨ يونيو ١٧١٢، في مدينة جنيف التي تركها وهو في السادسة من عمره متوجها الى مدينة سافوا ثم الى باريس التي استقر بها عام ١٧٤٢ وكانت نيته ان يبدأ دراسة واحتراف الموسيقى.

عاش واقعا صعبا في بداية حياته بباريس حتى قابل ديدروت (١٧١٣ – ١٧٨٤) وبدأ بنشر مقالات حول الموسيقى في الموسوعة الحرة.

لم تتميز علاقاته الانسانية بالاستقرار وهو ما كان يدفعه للعزلات المتكررة والتي كان اشهرها عام ١٧٦٢ حين عاد الى سويسرا بعد ادانة اعماله من قبل البرلمان في باريس، حينها شرع في كتابة مذكراته ليعدد اماكن اقامته المختلفة ويبرر اقامته فيها. حتى عاد في النهاية الى باريس عام ١٧٧٠ ومات عام ١٧٨٧ وهو في السادسة والستين من عمره.

تشكلت ماكنة روسو الفريدة في عالم الفكر من خلال عرض افكاره في منشورات مثل: "خطب حول العلوم والغنون – ١٧٥٠"، و"خطب عن اصل واسس عدم المساواة بين البشر – ١٧٥٥"، من اشهر اعماله "اميل او عن التربية" الذي نشر منذ مائتين وخمسين عاما والذي عبر من خلاله عن قناعته بوجوبية الاعتماد على تنمية السمات الطبيعية لدى الطفل بدلا من محاولة تغييرها نحو ما نعتقد انه الافضل، بالاضافة الى تدعيم المعرفة من خلال التجارب الملموسة وليس النظرية، الى جانب "العقد الاجتماعي" الذي ظهر في العام نفسه وفيه ينادي روسو بان ينظم الشعب الحياة والجماعية بين افراده.

ومن هنا كان روسو احد اهم فلاسفة عصر التنوير، حيث الهمت افكاره الثورة الفرنسية، وكان الثوار الفرنسيون من مختلف التيارات يستندون لافكاره على اختلاف درجة ثوريتهم، بل اكثر من ذلك فالمفكرون الذين تبنوا مواقف مناهضة للفكر لثوري كانوا ايضا يستندون لافكار روسو ويشهدون له امثال: "جوزيف دو ماستر ١٧٥٣ – ١٨٢١"، و"لويس جابريل دو بونالد – ١٧٥٤ -١٨٤٠"، بل اعتبره "ارثر شوبينير ١٧٨٨ – ١٨٦٠": "اعظم كتاب العصر الحديث".

اثرت كتاباته بقوة على الفكر الثوري، واحتفي به، بخاصة، بفضل اعماله حول الانسان، والمجتمع والتربية.

وانطلاقا من كلمات روسو وبمناسبة المئوية الثالثة لميلاده، صدر حديثا في باريس كتاب "روسو عبر كلمات" والصادر عن منشورات "لو باس دو فون" وتحت رعاية وزارة الثقافة الفرنسية.

حيث اختيرت عشر كلمات استخدمها روسو في كتاباته، وانتقى الناشر عشرة استشهادات من كتابات روسو لكل كلمة منها، ثم عهد الى عشرة كتاب معاصرين ليكتب كل منهم مقالا عن احدى الكلمات المختارة.

يدعونا الكتاب لاختبار المعاصرة في لغة كاتب ولد منذ ثلاثمائة عام من خلال مائة استشهاد له، الى جانب استعراض عشر مقالات لكتاب معاصرين، حيث الحيوية والتكثيف في عرض رؤاهم لكلمات روسو.

ويقول اليان براستي المشرف على مشروع "روسو ٢٠١٢" في مقدمة الكتاب: "روسو هو رجل يقاوم كل اشكال التيسير: والمقاربات، والتلخيصات". وهو من قال عنه بيرجسون: "روسو هو، بجدارة، الرجل الذي نناقشه دون ان نعرفه".

كلمات روسو:

١- "Ame" وتعني الروح او النفس هي جزء من الكيان الانساني، يفكر ويشعر وهي في مقابلة دائمة مع الجسد. والروح عند روسو هي الفضاء الداخلي الرحب المضطرب، والمعذب، الذي يدق في جوانبه اصداء عصره.

ومن اهم عبارات روسو ذاكرا فيها الكلمة الاولى: "كيف نخلص الروح من جميع اوهام العقل"

– (خطب حول اصل واسس عدم المساواة بين البشر).

"ان الضمير هو صوت النفس. والرغبات هي صوت الجسد" – "اميل، او عن التربية".

"هنا، يسلط صوت الامواج وصخب المياه حواسه، طاردا من روحي كل صخب اخر، ومغرقها في حلم يقظة عذب". "احلام يقظة المتجول الوحيد".

"لا احد يمكن ان يكون سعيدا دون ان يتمتع بتقدير لذاته، لانه اذا كان التمتع الحقيقي للروح يأتي من تأمل ما هو جميل فكيف للقبيح ان يحب الجمال الذي يراه في الآخر، دون ان يكون مجبرا على كره ذاته؟!" "فكر، حكم ومبادئ".

٢- "Autrement": وتعني، بطريقة اخرى، وتعني ايضا، في الحالة المقابلة.

يقول روسو: "لقد اتهموني بانني اريد ان اكون فريدا واتصرف بطريقة اخرى غير الاخرين". "الاعترافات"

اذن كان روسو يشعر قبل ان يفكر، وكي يكتب فلابد من القراءة اولا، وبالنسبة لروسو القراء هي رؤية العالم بطريقة اخرى تختلف عن الاخرين، وبالنسبة لنا قد يكون من المفيد ان نرى العالم من خلال كلمات شخص آخر، نستشعر العالم، معه، وسط اللانهاية من اللغة والمصطلحات التي تعبر عن محسوسات ومتجددات، واشياء تشبهه، غارقين في شعور المشاركة وراغبين في المكوث وسط هذه الرابطة الجديدة مع العالم التي نمارسها بطريقة اخرى.

"سيتساءل الطفل لماذا نتكلم بطريقة اخرى في صورة ابيات شعرية بدلا من النثر". "إميل، او عن التربية".

٣- "Caractere": وتعني: حرف الطباعة، وطريقة تتصرف بها، والسمة المميزة او الشخصية.

"الطريقة التي نشكل بها الافكار هي التي تمنح الفكر الانساني سمته المميزة".

ان جرأة روسو في تشكيل فكرته وعرضها هي التي منحتها سمتها المميزة، ومن ثم هي التي خلدت اسم روسو لاقترانه بها. وهل هناك ما هو خالد اكثر من الفكرة؟ فقد

manarat

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير

فخري كريم

مدير التحرير

علي حسين

الاخراج الفني

ديار خالد

التصحيح اللغوي

محمد حنون

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

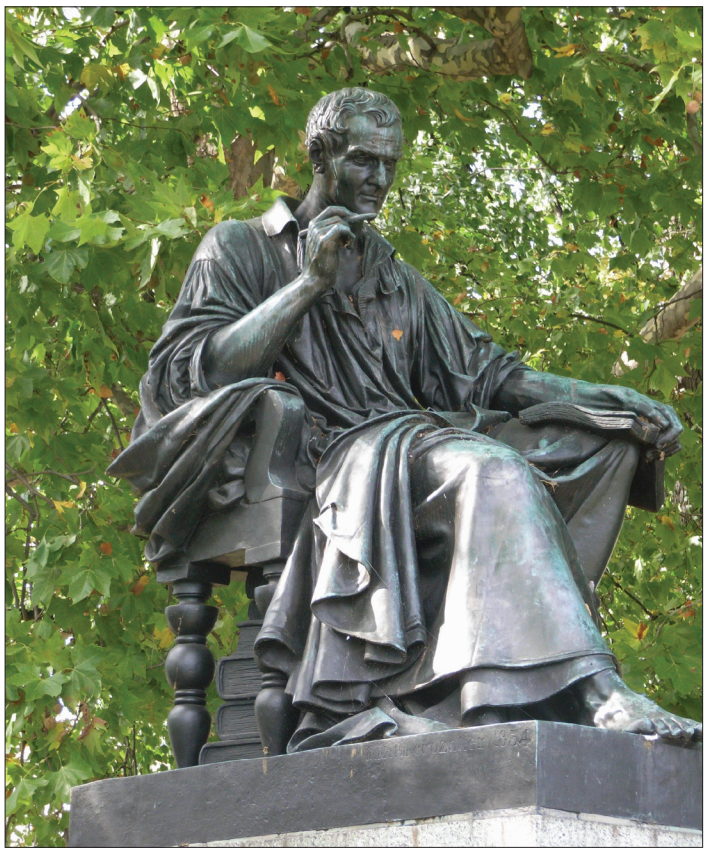

منذ مائتين وخمسين عاما في بلده هو ما جئنا ننادي به الان في بلادنا. وما ذكره في اعترافاته يتقاطع بشكل او بآخر مع اعترافات كل منا بالذاتية.

٧- "Naturel": وتعني: طبيعي اي جزء من الطبيعة – وما لم يتغير بفعل تدخل انساني – عادي – بسيط وتلقائي – مزاج – البساطة التي نتصرف بها.

"ان يحكم العدد الاكبر، بينما يكون العدد الاصغر هو المحكوم. لأمر ضد النظام الطبيعي". "العقد الاجتماعي".

"ان الرحلات تدفع بكل ما هو طبيعي نحو انحداره، وتنتهي بان تجعل الانسان اما حسنا واما سيئا". "اميل او عن التربية".

"هناك فرق كبير بين رجل عادي يحيا في دولة الطبيعة ورجل عادي يحيا في دولة المجتمع" "اميل او عن التربية".

قال عنه دافيد هيوم (١٧١١ – ١٧٧٦): "لم يفعل طوال حياته سوى ان يشعر، وفي هذا الصدد بلغت حساسيته قممًا ذاهبة الى ما وراء ما يمكن ان اراه، ولكن ذلك يمنحه شعورا عارما بالمعاناة اكثر من المتعة. فكان كانسان مجرد ليس فقط من ملابسه بل من جلده، واهتدى الى هذه الحالة ليحارب بجميع الوسائل الفظة والصاخبة". ثم علق برتراند راسل (١٨٧٢ – ١٩٧٠) على هذا التعريف بقوله: "انه الملخص الاكثر لطفا لشخصيته، وهو مطابق بدرجة ما للحقيقة".

٨- "Penchant": وتعني: اتجاه – نازع خاص – منحدر.

"لا املك قاعدة سلوكية اخرى سوى ان اتبع نازعي الخاص في كل شيء ودون قيود".

ومن اولى من روسو بنطق تلك العبارة؟! فهو الذي تنقل بين الاراضي والبلدان والمنازل والبشر، هائما على وجهه احيانا، وباحثا عن علاج لآلام روحه وجسده النحيل احيانا اخرى. دون ان يدفعه يقين، وانما شعور ونازع خاص.

٩- "Songe": وتعني: حلم.

"اتريدون العثور على رجال ذوي شجاعة حقة؟ لتبحثوا عنهم في الاماكن التي لا يوجد بها اطباء، حيث يجهلون عواقب امراضهم، وحيث لا يحلم اي منهم بالموت ابدا".

"نحن لا نحلم سوى بالمحافظة على طفلنا، وهذا ليس كافيا، إذ ينبغي ان نعلمه كيف يكون رجلا مكتملا، وكيف يتحمل ضربات القدر، وكيف يتواءم مع الرخاء ويجابه البؤس". "إميل او عن التربية".

بالنسبة لروسو المهم هو ان نعرف كيف نحيا الجزء الاخر من الواقع، فيما وراء الحلم، فالانسان هو صانع الاحلام التي يصدقها ويؤمن بها.

١٠- "Transport" وتعني: طريقة لنقل الاشخاص او الاشياء لمسافة بعيدة بعض الشيء – وسيلة النقل – شعور متقد او فورة الشعور.

"اذا لم يكن من معنويات في قلب الانسان فمن اين تأتيه اذن مشاعر الاعجاب المتقدة بالافعال البطولية؟!" "فكر".

"ذلك الذي يكاد يكون لا يحب سوى نفسه، بسبب التركيز في داخل ذته، لم يعد لديه شعور متقد، فقلبه الثلجي لم يعد يخفق من الفرحة".

مجلة العربي الكويتية

فني روسو وغيره من الفلاسفة امثال فولتير وكانط وبقيت اسماؤهم خالدة لانها اقترنت بالفكرة الخالدة، فالفكرة هي الروح التي يبثها المفكرون في الحياة لتحتل كل ذرة من ذراتها.

"كل انسان يحمل معه عند ميلاده شخصية ومهارة ومواهب تكون خاصة به وحده".

٤- "Chez": وتعني: عند، او في داخل، او في عصر.

"سريعاً ما ترتبط بدافع من ذوقنا العام بالموسيقى، والتي هي عند الشخص، وعند الشخص الاخر بمنزلة عاطفة مضطرمة جداً".

عاش روسو بعيدا عن "عنده" ومنفصلا عن ذاته، وهو قدره وذهبت به مشاعر الحماسة الى بعيد عن محيطه، ليعيش بالاحرى "عند الاخرين"، وهذا الانخلاع من الجذور في الكلام عن اليوميات في "اعترافاته" هو ما امتزج باللغة التصورية للفيلسوف ليعبر عن الانسان في سياقه العالمي. فذات روسو تتجلى من خلال تلك اللغة الانسانية التي تدفع بنا للامام، وتحرك شعورنا.

"حين نرى عند الشعب الاكثر سعادة في العالم مجموعات من الفلاحين تنظم امور الدولة اسفل شجرة بلوط وتتصرف بحكمة طوال الوقت، ايمكن ان نمنع انفسنا من احتقار اشكال التنميق عند الامم الاخرى، التي تجعلها مشهورة وبائسة بالكثير من الفن والغموض؟" "العقد الاجتماعي".

٥- "Confier": وتعني: يرعى، وتعني كذلك: ان يفضي بافكاره السرية لشخص ما.

"آه يا للريف! يا للطبيعة! انها كنز الفقير، ومصدر النكبة! فمن يشعر، ويعرف قوانينك المقدسة، ويعهد بنفسه اليها فهو من يتمتع قلبه بالسلام، ولايعاني جسده.. رغم مؤامرات البشر، ونجاح الاشرار، لا يمكن ان يكون بائسا مطلقا، لان ثروات الارض يمكن ان تهرب في اية لحظة.

وبألف طريقة، ممن يظن انه يمتلكها: ولكن لا شيء يمكن ان ينتزعها من متخيل الذي يعرف كيف يتمتع بها". "حوارات روسو".

لاشك ان روسو كان جريئاً في تأييد ايمانه فافكاره المتعلقة بالطبيعة، وسط محيط من الترف والرفاهية، حيث قابل بين دولة الطبيعة مصدر السعادة، ودولة المجتمع المصدر الرئيسي للشعور العام بعدم الرضا الانساني، وهي الافكار التي عهد بها الينا علنا نهتدي الى الكنز الاقرب لينا والاكثر يسرا.

٦- "Histoire":: وتعني: حكاية اي سرد لاحداث حقيقية او متخيلة – قصة مختلفة يراد بها الخداع – سلسلة من الاحداث المركبة – سرد لاحداث مهمة وقعت في الماضي وتتعلق بدولة او شعب.

"آه ايها الانسان، مهما كانت البقعة التي تنتمي اليها، ومهما كانت اراؤك، اسمع، ها هو تاريخك الذي اعتقدت انني قرأته، ليس في كتب اقرانك الكاذبين، ولكن في الطبيعة التي لا تكذب ابدا". – "خطب حول اصل واسس عدم المساواة بين البشر".

"كيف نعرف البشر، لابد من رؤيتهم يتصرفون، ففي العالم، نسمعهم يتكلمون، يعرضون خطبهم ويخفون افعالهم، ولكن في التاريخ تتعرى افعالهم" "فكر".

"ها هي بمنتهى الامانة، قصة الحادثة التي وقعت لي، في ايام قليلة، تلك الحادثة ستنتشر في باريس متغيرة تماما ومتحولة لدرجة يستحيل معها التعرف على احداثها" "احلام يقظة متجول وحيج".

حين يكتب روسو تاريخ شعبه، فهو ايضا يكتب تاريخنا، وحين يتحدث عن قصة حياته لا تستطيع سوى ان تسقط احداثها على احداث حياتك انت ايها القارئ. فلا ننسى ان ما كتبه عن العدالة الاجتماعية

PENGUIN CLASSICS
JEAN-JACQUES ROUSSEAU
The Confessions

MAURICE CRANSTON
The Solitary Self
JEAN-JACQUES ROUSSEAU IN EXILE AND ADVERSITY
With a Foreword by Sanford Lakoff

THE FIRST AND SECOND DISCOURSES
JEAN-JACQUES ROUSSEAU
EDITED BY ROGER D. MASTERS
TRANSLATED BY ROGER D. AND JUDITH R. MASTERS

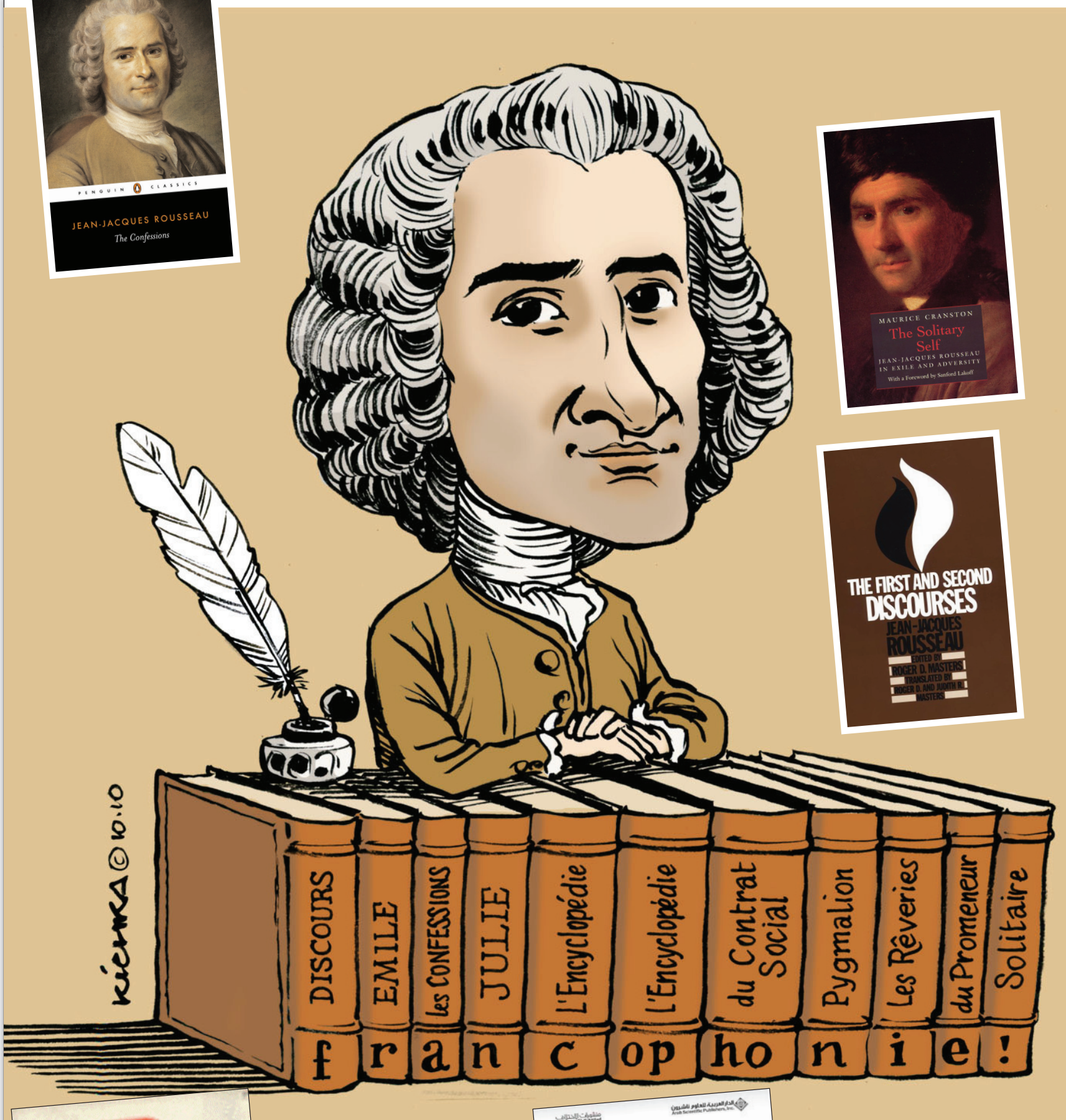
DISCOURS
EMILE
les CONFESSIONS
JULIE
L'Encyclopédie
L'Encyclopédie
du Contrat Social
Pygmalion
Les Rêveries
du Promeneur Solitaire
f r a n c op ho n i e !
KIEMKA © 10.10

محاولة في أصل اللغات

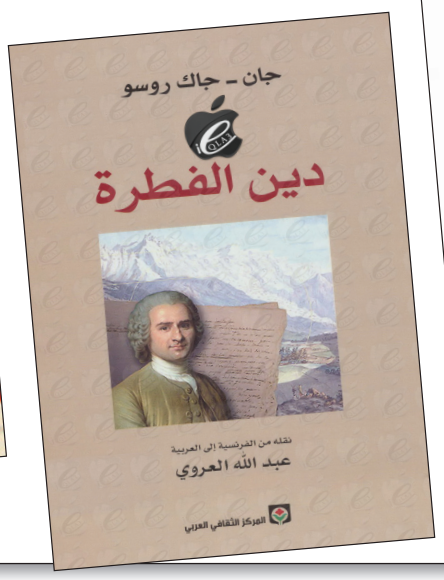
جان - جاك روسو
دين الفطرة
نقله من الفرنسية إلى العربية
عبد الله العروي
المركز الثقافي العربي

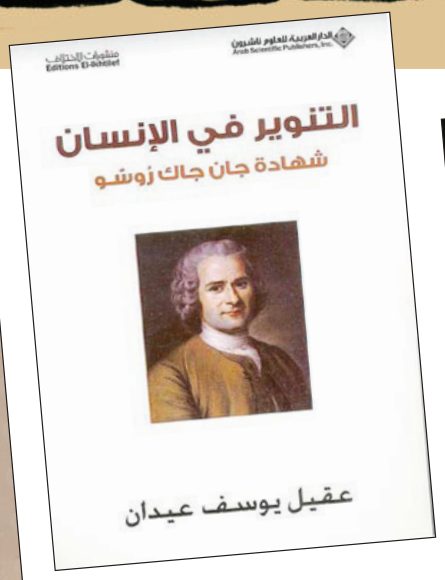
التنوير في الإنسان
شهادة جان جاك روسو
عقيل يوسف عيدان

إعترافات جان جاك روسو
جان جاك روسو